Lundi - 17 - 6 - 1940

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

8me Année No. 363

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٦٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ — الموافق ١٧ يونيه سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

الفهــــــرس

العـــــلم المسكين !

للأستاذ عباس محمود العقاد

إذا غضب الإنسان التمس لغضبه هدفاً وإن ارتد إلى نفسه وأحب الناس إليه ، لأن الغضب حركة ولا بد للحركة من اتجاه

وهكذا صنع صديقنا الزيات وهو غاضب على الحرب وأدواتها الجهنمية فى عصرنا الحديث . فنظر إلى أقرب ما يرميه فإذا هو العلم المسكين : العلم الذى علّم الناس أن يصنعوا البركان والإعصار ، وأن يسلموا زمامهما للقاذف والطيار !

غضب الأستاذ غضبته تلك فتمنى لو أن للعالم « كرة إلى عصر الجمل والحصان ، وحرب السيف والسنان ، ومدنية القلب واللسان ، لينجو من هـذا العلم الذى يدمر ما يعمر ، ويخلص من هذه الحضارة التى تأكل ما تلد »

ولو كرّ العالم إلى عصر الجمل والحصان وحرب السيف والسنان لما رضى صديقنا الأستاذ ، لأن هولاكو وتيمور قد صنعا بالحصان والسنان ما لم يصنع قواد هذا الزمان بالإعصار والبركان ، وزادا على ذلك بلاء الطواعين يضيفانها إلى بلاء الطعان ، فأين يذهب العلم المسكين مع هذا الإنسان !

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

بل ركب سناناً فوق السنان ، وأتى معه إلى الميدان بالحيوان . . . وبالجان !

ولو تمثل العلم شخصاً يتكلم لاستغاث من هذا المخلوق الذى شوه جمال كل جميل حتى المعرفة والنور

وهل المعرفة إلا نور ؟

وهل يأبى النور أن ينير إذا « اهتدى » به اللص فى طريق الشرور ؟

وهل يرتفع العلم بالإنسان إلى مكان أرفع وأطيب من فراديس الجنان ؟

فماذا صنع فى فراديس الجنان ؟

سمع وحى الثعبان ولم يستمع إلى وحى الرحمن

فويل لهذا الإنسان !

* * *

لقد ظهر الاختراع مع العلم فماذا صنع الإنسان قبل أن يخترع فى العصر الحديث اختراع العلماء ؟

اخترع الحصان أداة للكر والفر والطعان !

جاء به من الأجمة والجبل أسلم ما يكون بين فصائل الحيوان ، وقذف به إلى الميادين أخطر من النمر والثعبان . . . بل أخطر من المارد والشيطان !

وقبل الحصان حملته قدماه !

وقبل القدمين ركب رأسه وهواه

ولولا رأسه وهواه لما ضاقت به دنياه ... كان له الله !

* * *

أخى الغاضب على الحرب ! دع العلم فى مكانه منها، فوالله إنه لرحمة بالإنسان حتى مع هذا الشر الذى يتفجر به طبعه ويتدفق به نبعه

إنه لأرحم به من الجهل يوم كان الطاعون يقتل مائة إلى جانب كل قتيل واحد يسقط فى حومة القتال، ويوم كان كل قتيل واحد بؤرة تجتمع فيها ملايين الملايين من جراثيم الحميات والأهوية الوخيمة لتتفرق بعد ذلك من جبل الأطلس إلى أقصى الصين .

ولقد مات فى الحرب الأمريكية مائة وثمانون ألفاً فى حومة القتال وضعف هؤلاء القتلى ماتوا بالأوبئة والأمراض

وأحصوا فى حرب القرم خمسة وعشرين ألفاً من الإنجليز والفرنسيين ماتوا بالرصاصة والسيف ، ونيفاً وتسعين ألفاً ماتوا بطعنة مكروب صغير لا تراها العين ولا يعلم بوجودها القاتلون .

لا بل هذه السرعة التى تنعاها أيها الأخ على العصر الحديث هى التى تعجل بالسلم وقد كان بطيئاً من قبل كالبطء فى كل شىء من أشياء الزمن القديم

فأين هى الحرب التى تدوم اليوم ثلاثين سنة كما دامت حرب الثلاثين ؟

وأين هى الحرب التى تعود اليوم فى كل موسم كما كانت حروب القبائل البادية تعود فى كل مرتبع أو كل مصطاف ؟

أما عدد القتلى فما كان أكثره بالأمس ، وما أقله اليوم بالقياس إلى عدد الأمم المشتركة فى الحروب

لقد مات فى حروب جنكيزخان نحو عشرين مليوناً ، واشتركت أمم الأرض فى الحرب الماضية فكان القتلى فيها أقل من تسعة ملايين

ودارت معركة بين الإنجليز والإيقوسيين فى أوائل القرن السادس عشر ، فبلغ القتلى من هؤلاء الأخيرين عشرة آلاف، ولم يكن سكان انجلترا وإيقوسية يومئذ يزيدون على أربعة ملايين

وسر ذلك أن القوة قد اشتدت فى سلاح الفتك وسلاح الوقاية على السواء ؛ فالمدفع الذى يقتل ألفاً تخيفه طيارة يديرها رجل واحد ؛ والأسلحة التى تبذل فيها الأمة ألف مليون يصدها الحصن الذى تبنيه الأمة بمائة مليون ، واللغم الذى يودى بالمدرعة العظمى يلقطه وعشرات معه زورق صغير

ولكل شىء آفة من جنسه !

والفضل للعلم الحديث الذى صدم الشر بالشر فوقفا متكافئين ، ولو انطلقا بغير رادع لهلكا متسابقين إلى الهلاك

* * *

فالحق أننا لنتخيل الدنيا وقد احتشد فى جانب منها عشرات الملايين ، وترامت بينهم ألوف الجثث وهم بعيدون من المعقمات التى اخترعها العلم والمطهرات التى صنعها العلم ووسائل العلاج التى استنبطها العلم ، ثم نتخيل ما وراء ذلك من أوبئة وطواعين ، ومن حميات وأدواء ، ومن صرعى لا يجدون القبور ولا القابرين ، فلا يسعنا إلا أن نغضب كما غضب الأستاذ من الحرب ، وإلا أن نثور كما ثار الاستاذ على البناة الآثمين ، ثم نخالفه بعد ذلك فننادى بالعلم جهد ما نستطيع من نداء : مكانك فينا أيها العلم فلا رحمة لنا فى عهد الحصان والسنان ، وإنما الرحمة لنا فى عهد الإعصار والبركان ، ومن يلجم الإعصار والبركان . لأننا

إذا رجعنا كرة أخرى لم نفقد الشر الذى يغرى بالقتال ويغرى بالعدوان ، بل فقدنا الضياء الذى يرينا الشر والخير يتصاولان ويتكافآن ، أو فقدنا شراً يدفع شراً فلا يبغيان ولا ينطلقان

***

أذكر كلمة للعالم الكبير « أوليفر لودج » يقول فيها إن خلقة « الميكروبة » مكسب كبير لعالم الحياة ، فلو فرطت فيه الدنيا لبقيت عند المادة الصماء ، ولم تتجاوزها إلى ما وراءها من عالم الأحياء

وهذا الذى قاله أوليفر لودج حق عظيم

فلو أننا استطعنا أن نتخيل أنفسنا فى مطلع الخليقة ، وأن نتخيلنا مسؤولين : هنا مادة صماء تبقى أبد الآبدين مادة صماء ، وهنا جرثومة حية صغيرة تنمو وتنمو معها الحياة ولكنها لا تؤمن على سائر الأحياء ، ولا بد لها من دواء يطول فيه العناء ، فماذا أنتم مؤثرون يا معشر الخلق بين هذا البلاء وذاك الفناء ؟

هنا يبدو لنا أن خلقة « الميكروبة » مكسب كبير كما قال « أوليفر لودج » الذى يقدس الجرثومة لأنه يقدس الحياة ويقدس الروح

وهنا يبدو لنا أن علاج « الميكروبة » مكسب آخر قد ارتقينا به فى مراتب الفهم والمعرفة وكبحنا به كثيراً من شرور العجز والجهالة

وعلى هذا النحو تقترن المحنة بكل منحة ، ويقترن العناء بكل نماء :

يبكى الطفل حين يولد ، ويمرض حين تنبت له أسنان ، ويختل ميزانه زمناً حين يدرك المراهقة ، ويشقى بالتبعة زمناً حين يخرج من وصاية الأب إلى رشد الرجولة ، ويعطى كلما أخذ مادام مرتقياً فى مراتب الحياة

فمن يدرى ما تشترى « الإنسانية » غداً وقد بذلت الثمن الفادح فى الحرب القادمة ؟

إنها مشترية شيئاً لعله يجمع بين فضيلة الفطرة وفضيلة الحضارة، وبين مزية الأناة ومزية السرعة ، ولعله أن يفيض على بنى الإنسان طمأنينة الواجد الذى يحمى ما يجد فهى خير من طمأنينة المعدم الذى لا يملك ما يفقد ، وهى حالة يرضاها صديقنا الأستاذ إذا أغضبته الحروب، أو هى حالة أقرب إلى الإمكان من كرة أخرى إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان

عباس محمود العقاد

في حياتنا الوجدانية (*)

[مهداة إلى الأستاذ عبد المنعم خلاف . . الكاتب الذى أحب عالمه الوجدانى]

للأستاذ حسين مروة

ما الكرامة وما الشرف ؟

ما الحرية وما المجد ؟

أسماء فخمة رائعة ، ذات أجنحة سحرية عجيبة ننجذب إليها طائعين مسحورين ، فتحلق بنا فى سموات من الخيال موّاجة بالأنوار والألحان والمباهج ...

أسماء ذات أبعاد ضئيلة ، محدودة ، ناقصة ، يكمن فى أطوائها سر من الأسرار لا تحده الأبعاد الواسعة ، سرٌّ يُفيضُ الخيرَ على جوانب الحياة كلها ، ويطوف بالنفوس الإنسانية جميعاً فيثير فى الضعيف العاجز مجرَّد الحنين واللهفة والألم ، ويحمل القوىَّ القادرَ على ركوب الأخطار والأهوال والمكاره ، وقد ينفخ فى الضعيف الحى الطموح قوة تكتسح بذورَ الضعف ، وتصرع عواملَ العجز والخنوع والاستسلام ...

ما هى هذه الأشياء الحبيبة للانسان تبهره أضواؤها ومباهجها وتشتدُّ لهفته إليها كلما اقترب منها ، ويتغنى بوجده بها فى سره وجهره ، فى صحوه وسكره ، فى كوخه الوضيع وقصره الرفيع ، سواء أ كان غبياً أم ذكياً ، ضعيفاً أم قوياً . أ كان بادياً فى الصحراء القاحلة ، أم حاضراً فى المدينة العامرة ؟ أ كان فلاحاً يتصبب عرقه فى حقله ، أم عالماً يجرب فى مخبره وينقب فى كتبه ؟

ما هذا الهوس المحموم يدفع الإنسان ـ أفراداً وجماعات ـ إلى غمرات الموت بين اللظى المستعر والحديد الحاصد ، فيندفع راضياً مستعذباً لقيا الشدائد فى سبيل ما يدعوه الكرامة والشرف أو فى سبيل الحرية ومجد الأوطان ، لكأنما هو — حين يلقى الشدائد فى هذا السبيل — إنما يلقى أحبَّة أعزة فى ظلال أمن وارف ودعة ظليلة ناعمة ... ؟

ما هى الكرامة والشرف ؟

وما هى الحرية والمجد ؟

هل هى حقائق ذات قرار فى عالم الحس والواقع : العالم الذى نتعرف إلى حقائقه الموجودة بإحدى هذه الأدوات الخمس : العين التى تبصر الألوان والأنوار والظلال ، والأذن التى تسمع الأصوات ، والفم الذى يذوق الطعم ، والأنف الذى يحسُّ الرائحة ، واليد التى تلمس الحرارة والبرودة والخشونة والنعومة ؟

هل الكرامة والشرف ، وهل الحرية والمجد حقيقة من هذه الحقائق المحسوسة فى هذا العالم الواقعى الذى لا يعترينا الريب بوجوده ؟

كلا : ليست هى شيئاً من هذا كله ـ كما نعلم جميعاً ـ

أتكون ـ إذن ـ معدومة لا قرار لها فى هذا الوجود الواسع ؟

أتكون ـ إذن ـ غارقة فى بحر العدم اللاّنهائى ؟

ولكن : كيف تكون الكرامة والشرف ، والحرية والمجد ـ عدماً من الأعدام وها هى أضواؤها الباهرة تبهر عيون الشعوب الضعيفة والقوية على السواء ، وها هى أنغامها الصارخة تدفع بالإنسانية اليوم إلى المجزرة الهائلة الطاحنة ، وها هى الدماء البريئة تراق على جوانبها ، وقد كانت كذلك من قبل أن يقول الشاعر العربى العظيم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وستظل كذلك حتى ينصب ميزان العدل أمام الديان الأعظم ...

كيف تكون الكرامة والشرف والحرية والمجد عدماً من الأعدام وهى نفسها تلف سبعين مليوناً ونيفاً من العرب بشملة واحدة وهم فى رقاع من الأرض متباعدة ؟ وهى : هى نفسها تشد الأواصر وتجمع القرابات ، وتوحد المشاعر بين شعوب العربية على اختلاف الديار والأحوال . وهى نفسها — كذلك — تدفع

(*) مثلت « لجنة الخطابة والتمثيل » فى ثانوية الناصرية (العراق) فى شهر أبريل الماضى رواية (الاستعباد) للمؤلف المسرحى والممثل المعروف الأستاذ يوسف وهبى ، وهى مسرحية تدور حوادثها فى مراكش إبان ثورة الزعيم عبد الكريم الريفى ، وهي تصور جانباً من همجية المستعمر ، وجانبا من إباء العربى الضيم ، ومن هذه المناسبة استوحى الكاتب كلمته هذه

ببضعة نفر من هؤلاء الشباب المتحمسين إلى المسرح يمثلون — أمام جمهور عربي متحمس — دوراً من أدوار جهاد العرب المقدس في سبيل الكرامة والشرف وفي سبيل الحرية ومجد الوطن؟

إذن : لا سبيل للشك في أن هذه المعاني الوجدانية السامية ليست هي من الأشياء الغارقة في بحر العدم المطلق ، ولا سبيل للشك — إذن — بأنها في قرار مكين من هذا الوجود

نعم : هي موجودة دون شك ولكن ... ولكن أين يقع محلها في بحر هذا الوجود الأوسع ما دامت لا قرار لها ـ كما قلنا ـ في عالم الواقع المحسوس ؟

وهنا يبدو لنا سؤال هو مفتاح السر في هذا الموضوع :

تُرى : أكان الإنسان إنساناً بمجرد هذا الوجود الحسي الواقعي وحده ؟ إذن : فما معنى هذه الإنسانية المتبجحة بأسرارها الخطيرة ؟ ما معنى هذه الإنسانية المفضَّلة — تفضيلاً مطلقاً — على كل شيء وهب نعمة الوجود ؟ ... ما معنى هذه الإنسانية المزهوة بعظمتها إذا كان وجودها قائماً على جانب واحد هو الجانب الحسي الواقعي ، الجانب المادي دون غيره ؟ وأين يمتاز الإنسان ـ إذن ـ عن الحيوان الأعجم إذا كان يشاركه في هذا الجانب المادي من الوجود ثم لا يزيد شيئاً بعد ذلك ؟

اللهم لا : إن هذا الإنسان العظيم لأرفع شأناً ، وأجل خطراً من أن تكون إنسانيته العظيمة قائمة على وجودها المادي مجرداً ، لا يسنده جانب آخر من جوانب الوجود ... لا : ليس الإنسان كائناً حياً وكفى ... بل إن الإنسان : كائن حي ، أعلى ، فهو إنسان — إذن — لأنه ذو جانبين اثنين يشارك بأحدهما سائر الكائنات الحية في هذا الوجود ، ويتفرد بالجانب الآخر واقفاً على قمة الهرم : هرم الحياة

فما هو الجانب الآخر الذي يصعد بالإنسان إلى قمة الهرم ؟

هو لون من الوجود أفاضته الطبيعة على هذا الكائن الحي فصار إنساناً ، وصار الإنسان سيد الوجود على الإطلاق

هو لون من الوجود غريب يأبى التعريف والتحديد ، لأنه يسمو فوق الحدود وفوق القيود ، وإنما نعرفه بمظاهره وآثاره ليس غير

هو الآية الكبرى من آيات الطبيعة جاءت بها لتقيم البرهان على عظمة الخلق والإبداع الإلهي

هو الكوة التي يطل منها الأنبياء والمصلحون على الناس ليغدقوا عليهم أنوار الإيمان والفضيلة والرحمة والعدالة فتتفتح له عيون ، وتعشو منه عيون ...

هو المنظار السحري العجيب الذي يتطلع منه الشعراء ، والفنانون الملهمون إلى الوجود ، فيكشف لهم أسرار الوجود وخفاياه ، ويلون لهم الحياة بألوان من الجمال وألوان من القبح ، ويصور لهم الناس صوراً من الملائكة وصوراً من الشياطين ، ويخلق لهم عالماً من السعادة يموج بالعطر والنغم ، أو عالماً من الشقاء تفح فيه الأفاعي ، وتضرى الذئاب ...

هو مصباح الفلاسفة والمثاليين يدورون به في مجاهل الكون وخباياه يبحثون عن الحقائق الكلية المطلقة ، ويتغلغلون به إلى مكامن السر المحجب يستكنهون معنى الإرادة العليا فيما وراء المحسوس ، أو يسيرون به على الأرض في دنيا المطامع والشهوات يبشرون برسالة الحق والخير والجمال الأسمى

هو العالم الجميل الذي يعيش به المحبون في سبحات من النور تصور لهم كل لمحة من جمال الطبيعة معنى من معاني الحبيبة أو الحبيب

ذلك هو عالم الخيال والذهن والإدراك ، أو هو عالم «الوجدان» كما يسميه العلم

فللإنسان ـ إذن ـ وجودان لا وجود واحد : هما الوجود الواقعي المحسوس ، والوجود الذهني غير المحسوس ، أو فلنقل : إن للإنسان حياتين : حياة مادية ، وحياة وجدانية ، وكلما كانت حياته الوجدانية أوسع أفقاً ، وأكثر إشراقاً — كان أقرب إلى الإنسانية الصحيحة أو كان أقرب إلى معنى الكمال الإنساني وكلما ضاق به أفق الحياة الوجدانية ونظر إلى دنياه من نافذة الحياة المادية وحدها — كان أبعدَ ما يكون عن الحقيقة الإنسانية بمفهومها الأعلى ، وأقرب ما يكون إلى حقيقة هذا الحيوان الأعجم يشاركه كل المشاركة في ماديته العمياء المجردة ، بل قد يفضله الحيوان الأعجم في هذه الناحية المشتركة

وشعور الإنسان بالكرامة والشرف ، وشوقه إلى الحرية

والمجد — هما المظهر الأسمى لإنسانيته الصحيحة ، لأن الشعور بالكرامة والشرف ، والشوق إلى الحرية والمجد — هما أقوى مظاهر الحياة الوجدانية ، وأدل على خصب الخيال ، وسعة آفاق الذهن ، وغزارة ينبوع الجمال النفسي ، وقوة إشعاع الروح — هذه الأمور التي تنبع رأساً من دنيا الوجدان في حياة هذا الكائن الحي الأعلى ... الإنسان

ولا فرق في هذا كله بين شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفها ، وشوقه إلى حريتها ومجدها ، وبين شعوره بكرامة قومه وشرفهم ، وشوقه إلى حرية أوطانه ومجدها ، بل : لعل هذين أمران متلازمان لا ينفكان كما يبدو لدى النظر العميق

وعلى ضوء هذا التحليل الصادق نعتبر الأمة العربية في مقدمة أمم العالم رسوخاً في الحياة الوجدانية السامية ، لأن تاريخها المجيد طافح بآثار قوة الشعور بالكرامة والشرف ، وشدة الظمأ إلى الحرية والمجد ، وأيامها التاريخية اللامعة حافلة بالأمثال العالية لحب الكرامة والشرف ، وحب الحرية والمجد إلى حدود الغلو ، وهي حافلة كذلك بالشواهد العجيبة على التضحية والفداء في سبيل هذه المعاني الوجدانية سواء في الماضي والحاضر ، وستكون للعرب مثل هذه الشواهد والأمثال في المستقبل — كذلك — حتى ينقذوا كرامتهم من الهوان ، وشرفهم من الامتهان ، وحتى يدركوا حريتهم الغالية السليب ، ويؤثلوا مجدهم الرفيع الذي كاد يصبح خبراً من أخبار الغابرين الداثرين .

(العراق) حسين مروه

إلى أين . . . ؟

للأستاذ محمود محمد شاكر

- ٢ -

قال صاحبي بعد قليل من سكتة صفير الإنذار بالغارة الجوية :

الآن وقد صم صدى هذا النذير البغيض ، ومات صوت البومة الدميمة التي قامت تنعق على الوضع الخراب من عقل هذا العالم ، فأسرعت الأيدي وتناهضت الأقدام ، وخفت الأحياء ليطمروا أشلاء النهار التي كانت مبعثرة في طرقهم وبيوتهم على معركة الليل البهيم ، إنهم يدفنون هذه الأشلاء الوهاجة خشية أن تراها عيون العافية من سباع الجو المنقضة بأنياب كرجوم الشياطين . آه يا صديقي ! ما أقبح هذا وما أجْرَه . ولكن دعني من هذا ، فالآن أعود إليك

لقد مثلت لك بعض صورتها هي وبعض صورته عند أول اللقاء . لم أكشف لك بعد عن حقيقة النفسين وهما تمتلئان بأسباب من القدر ، إن هذه الأسباب التي لا تدري متى أولها ، قد أخذت تلتوي عليهما فيما يستقبلان من أيامهما ، وتم بدأ الإشكال ، وتراكبت العقد الجديدة على تلك العقدة القديمة التي التبست عليهما في الطفولة ، فلست أدري ، ولا هما أيضاً يدريان ، إلى أين المصير !

لحها ولحته في يوم اللقاء الأول ، فوقفا طويلاً ينظران . وشخص البصر وكفت العين لا تطرف ، وكأن العين قد أرسلت إلى العين رسلاً من أشعتها لتبحث في أعماقها عن معانيها الحائرة التي لم يستقر بعد على قرار مؤمن ، تتبين فيه كلتاهما صورة كلتيهما القلبية التي تنبض في موج الدم

أما هو ، فقد أخذه ما يأخذ الغريق الشقي على هاوية من الهلاك الرطب الندي ، ثم يفتح عينيه ، فإذا هو ملقى على الشاطئ قد انتشلته من فزع الردى نجاة برحمة من روح الله . ولكنه لا يدري من الذي رده إلى الحياة بعد ملابسة الموت ؟ ولا كيف كان ؟ ولا أين هو ؟ ولا أي مكان هذا ؟ ...

وأما هي ، فقد أنكرته باديء اللحظة ، ثم انكشف لعينيها الحجاب الكثيف الذي أرخاه الدهر الماضي بين أيامها وأيامه ... لقد عرفته وأثبتته معرفة ، فأقبلت عليه تندفع بقوة الرد المنفلت من شد عشرين عاماً كانت تجاذبها دونه :

أنتَ ، أنت ! ! أين كنت ؟ !

آه ، لقد نسيَ المسكين عندئذ أين كان ! إنه هنا ... ! أليس هذا كافياً ؟ أليس هو كل شيء ؟ ... أما الماضي ، أما الحياة التي عملت في بنيانه أعواماً طوالاً كلها جهد وإرهاق ... ، كل ذلك ذهب وباد وامحى ، وكأن اليد التي تمحو ما تشاء وتثبت في تاريخ الإنسان ، قد أمرت صفحتها على رقعة أيامه الماضية فغسلتها وطهرتها من سوادها ، وردت إليه وإليها صحيفة أيامه بيضاء نقية قد تهيأت أن ينمنم فيها القدر تاريخه الجديد ... أجل ! كان هذا هو الإنذار الأول من القدر لهذا المسكين أنه سينسى معها كل تجاريبه في الحياة ، وأنها هي التي ستكتب له هذا التاريخ الجديد من القدر خيره وشره

ومضت الأيام الأولى بعد هذا اللقاء البغت على ذكرى حاضرة تصارع وحوش الماضي التي وطئت بأقدامها عهود الصغر وملاعب الطفولة فطمست معالمها ومحت بعض آياتها . جعلت هي تتكلم ، وكأنها ذاكرة التاريخ الواعية التي لا تكاد تفلت شيئاً إلا أحصت دقيقة وجليلة . حدثته وذكرته وأعادت عليه زخرف الصبا ووشيه من نسج حديثها ، أما هو فبقي صامتاً ينصت لها خاشعاً ضارعاً يسمع صدى الماضي الذي يتكلم في سراديب النفس العميقة الممتدة الذاهبة بأساليبها الغامضة في أقصى غيب الحياة

كيف تدب الحياة في أشياء الطبيعة التي تخيل للناس أوهامهم أنها موات ؟ كيف تستيقظ الأرواح النائمة في غار مظلم قد أطبقت على منافذه صخور صم من جبال الزمن ؟ كيف تستقبل النفس — التي أحرقها الظمأ المتضرم — شؤبوباً من الغيث يهمي عليها بارداً عذباً زلالاً سائغاً يترقرق ؟ كيف وكيف ؟ لقد عرف هو كيف يكون ذلك كله حين تكلمت روحها في ثنايا روحه المتغضنة بأحزانها ، وحين أخذت تناجيه بالذكرى ...، ويتحدر في صوتها ذلك اللحن الخالد الذي يتحدر مع الغيث من السماء يناجي الأرض الظامئة المقشعرة الجدبة ، فكذلك تهتز وتربو على مد أنغامه التي تفجر في ذرات الثرى كل ينابيع الحياة

واستجاشت هذه الساحرة الجميلة التي خرجت عليه من لفائف الغيب المحجب تلك النفس المصممة العنيدة فما زالت حتى انقشعت الغمامة الغبية التي كانت تحيط بنفسه عمراً من قبل . إنه الساعة يسمع ويرى ويحس ، ويتغلغل في الحياة ببأس شديد . لا ، بل كان في أول أمره هذا مضطرباً حائراً يدور بقوته حيث دارت به على غير هدى ولا صراط ، كان ربما خلا فاستوحش فارتاع ، فيحتمل كل أعباء الهم الذي يجده في نفسه ، فيخرج يضرب في البيداء المقفرة البيضاء في مدا البصر ، حيث لا يرى إلا صفاء السماء وبحر الرمل الساكن في مهاد الأرض ... ، حيث لا يسمع إلا حنين الرياح ونجوى أشواقها الأزلية في المهمه القذف . يمشي ثم يمشي حيث يتصرف به القدر الغالب ، وهو لا يسمع مع ذلك إلا أنغام صوتها من حوله يتردد : أنت ، أنت ! ! أين كنت ؟

اشتعل القلب وفارت الروح ، فانطلق بعد الحيرة والضلال في طريق سوى مؤيداً بهذه الروح القوية التي سيطرت على كل روحه بالحب والحنان ، ومضى يعمل لها وبأسبابها نافذاً مقدماً لا يعل . ولكن سمعه لم يزل على حالة من الإصغاء ثابتة ، كأنها إغماء أخذه كما تأخذ غمية الوحي إذا نزل فاشتد فاستبان ، ثم تنحدر رنات صوتها إلى قلبه فتجري في أنهار الحياة المتدفقة في جثمانه بدمه ، فيرجع الدم ألحانها ترجيعاً موسيقياً هفافاً آتياً من أغوار القدر العميقة . نعم ، إنه لا يزال يسمع في مخارم نفسه ومهاويها صدًى يتردد :

أنت ، أنت ! ! أين كنت ؟

فتجيبها الروح من أعماقها :

أنا هنا ، أنا هنا ! ! أيتها العزيزة !

* * *

هكذا بدأ بدؤه وقد نام كل ما فيه وخضع لسلطانها الذي لا ينتهي ولا يفتر ، ثم دبت في روحه اليقظة الجديدة فتجددت النفس المتغضنة ورق شبابها ، واستجمعت قواها الشاردة بعد فترة كإغفاءة النائم في أنفاس الفجر الندى المتروح بعطر الرياض النضرة . ولكنه عاد — بعدئذ — برجولته يتوحش ، فارتد إليه حذره الوحشي يتوجس خيفة ، وأخذه بذلك الرعب من كل مكان

أين أنا ؟ وكيف كان هذا ؟ ولم خضعت ؟ وإلى أين أسير ؟

كل هذه أسئلة جمل صداها يتردد في نفسه ، ثم يلقيها على الدهر الأصم ، فلا يجد جوابها جميعاً ولا تأويلها . ويومئذ جمل يصول صيال الوحش يريد أن يجد الفيل المفقرد الذي يفرض فيه سلطانه على جوه وغابه ... ولكن وارحمتا له ! لقد حق ما قلت يا صديق : المسألة كلها قدر محتوم ! رفعت الأقلام وجفت الكتب !

أرأيت إلى ما وصفت لك من أول ما تلاقيا ؟ أرأيت إلى ذلك الوحش الآبد الحذر الذي لا يألف الحياة ولا هي تألفه ؟ أرأيت إلى تلك الفكرة الباذخة المعضلة التي تأبى أن تذل أو تهتضم ؟ أرأيت إلى البركان المتقلع في عنفوان فورته ؟ كل ذلك قد استحال بين يديها ، وتحت أشعة عينيها ، وفي مس أنفاسها ، شيئاً غير هذا كله . فكل ما توحش منه فهو عندها يألف وادعاً يلوذ بها خاشعاً متضرعاً ، وكل ما بذخ وسما وتعضل فهو يتطامل لها ورق ويتلين ، وكل ما تقصف منه وفار وغلى فهو ينساب إليها صبابة وحنيناً ولوعة

* * *

وعندئذ سكت صاحبي بغتة كأن لسانه قد عقد عقداً على ألفاظه ، ثم تنهد واحدة كأنما انهد بها ركن من جبله القائم في ضمير نفسه . ورمى ببصره في هذا الركام المتكاثف بعضه على بعض من ظلام الليل . لم أرد أن أستثيره من هدأته التي يستريح إليها بعد هذا الجهد الهائل الذي كان يتدفق به في حديثه . لقد كان يعاني من هذا الحديث أشد مما يعاني الهارب السائر في وحشة الليل الصامت في غول الصحراء ، وهو هائم على وجهه تطارده من ورائه شياطين العذاب التي تريد أن تنتشطه إليها بخطاطيف هائلة من الرعب والفزع

كنت أرق له وآسى عليه ، ويمنعني من الحديث معه مخافتي أن يكون ذلك مما يصرفه عن بعض الفكر الذي يتعذب به وبوساوسه وخطراته . نعم ، إنه عذاب عقلي أليم ، ولكنه على ذلك مما يعطي النفس بعض راحتها من عذاب الشك والقلق والحيرة والحياة كلها صروف متعاقبة يراد بها السمو بالنفس على وجه من وجوه الألم . والألم وحده هو الذي يستطيع أن يصقل النفس

الإنسانية صقلاً رائعاً ، وبذلك يرد إليها حقيقة الإيمان المشرقة بالاطمئنان والتسليم . إنه حائر يشك فى حقيقة ما يقع عليه فكره ولـكن هذا الألم الذى يصارعه صراعاً عنيفاً لا رحمة فيه ، هو نفسه الرحمة المهداة إليه ، ليؤمن بعد ذلك إيماناً لا يداخله شىء من الشك أن قلبه لم يخطىء ، وأن أفكاره القلقة هى التى تخطىء وأنه ينبغى أن تقيد أفكار العقل الحائر بأغلال متينة من أفكار القلب المؤمن

وتضربت فى همسات الليل أفكارى فيه ، وجعلت أستعيد فى نفسى كل ما قاله لأرى من تحته المعانى التى تتهارب وتختفى بطبيعتها فى ظل الألفاظ اللغوية المحدودة بمعانيها . كنت حائراً فى فهم هذا الصديق الذى يحدثنى عن صديقه ، وما صديقه إلا هو وكنت ألمح هذا الجبل وهو يتخلع من أعضاده التى ينهض عليها ثابتاً قاراً متسامياً يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها ، وجالت فى نفسى أفكار وأسئلة لا جواب لها . يارب ! أهكذا يضمحل الرجل ؟ وارتفع صوتى بهذا السؤال غير متعمد لذلك . فما هو إلا أن هبّ صاحبى من غفوة الفكر التى غشيته ، فابتدرنى يقول :

نعم ، هكذا يضمحل الرجل ! وما تريد أنت إلى ذلك ؟ إنك دائماً تفجؤنى بتمثال يتكلم بأفكارى التى أتكلم بها فى غيب نفسى أى شىء هو الرجل ؟ هل تستطيع أنت أو من سواك أن يقرر للعقل حقيقة الرجل ، وأن يمهد لفكرته أصلاً لا يزول ، فإن يخرج عنهما أو عن أحدهما اختفى فى العقل أن يكون رجلاً حق رجل ؟ هذا هو الغرور الذى يتهاوى فيه الناس ما داموا ناساً يبنى بعضهم على بعض ، فطرة ركبت فى سر طبائعهم . إن هذا ليس اضمحلالاً وضعفاً بالمعنى الذى تتوهم ، إنه ليس من قوة فى الطبيعة إلا وفوقها قوة تحكمها وتصرفها ، وخضوع قوة لقوة أعضل منها ليس يعرف ضعفاً فيمن يخضع ، وإنما هو القانون الطبيعى الذى يستقيم به نظام العالم . إنه لا يقال للدوحة الفينانة العظيمة : أيتها المسكينة ، لماذا تخضعين لسلطان الفصل الذى تساقط به أوراقك ؟ أو لماذا هذا الحنين الدائب إلى قطرات من الغيث ، وهذا الجبل أمامك يسفح عليه ماء السيل ثم ينقطع أعواماً فلا يظمأ إليه فيحن كمثل حنينك إلى قطرات من الماء انقطعت بضعة أشهر ؟ هذه طبيعة الدوحة ، فإذا انقلبت طبيعتها إلى غير هذا الناموس قتلها الظمأ وتركها حطباً يابساً لمن يستوقد

آه أيها الصديق ! إنك لن تعرف الحقيقة حتى تستشعر قوة الآلام الملتهبة التى تترك الرجل يتزايل على الشوق والوجد واللوعة كما يتزايل جبل من الفولاذ قد تجوفته نار متضرمة من لهب جهنم . أبغنى قليلاً من الماء ثم أحدثك كيف اضمحل الرجل !

(لها تتمة) محمود محمد شاكر

فى سبيل الأزهر أيضاً

فتوى ... وفتوى ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

لست أدرى : أيغفر لى قراء « الرسالة » الغراء أن أعود بهم مرة ثانية إلى « فائدة الأربعاء » بعد أن كتبت فيها مقالى الأول[1] ؟

« وفائدة الأربعاء » فى نفسها لا تستحق شيئاً من العناية ، ولا تستحق أن نشغل بها قراء « الرسالة » فى الحين بعد الحين ؛ وإنما أعود إليها لأنها تمثل ناحية من نواحى التفكير فى الأزهر ، نبغى أن يتناولها الإصلاح ، وأن تحمى منها العقول والأفكار ! وقد جدّ فى شأن هذه الفائدة جديد ، ومن حق قراء « الرسالة » أن يطلعوا على هذا الجديد ، ليتابعوا دعوة الإصلاح فى كل خطوة من خطواتها ، ويدركوا كل طور من أطوارها !

كان حديثنا الماضى عن « فائدة الأربعاء » تسجيلاً لفتوى غريبة أصدرها عالم جليل من جماعة كبار العلماء ، وقرر فيها : « أن فائدة الأربعاء جائزة لا شك فيها ، بل هى مرجوة البركة ، وليس فيها إلا عدة أمور بعضها جائز وبعضها مندوب إليه ، وأن من يكذب بشىء منها ، فهو منكر أو جاهل بما ورد فى الدين من المتواترات ... الخ »

ولم نشأ يومئذ أن نعلق على هذه الفتوى التى كنا أول من لفت الأنظار إليها ودل على مواطن الخطأ فيها ، ولـكننا اقتصرنا على أن نسجل منها « بعض الظواهر » ، ونستجلى « بعض الغوامض » ، ثم طلبنا من فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية أن يُدلى إلى الناس برأيه فيها ، وقد علمنا أن فضيلة الأستاذ الـكبير قد اهتم بالأمر ، وأن فتواه فيه على وشك الصدور إن لم تكن قد صدرت بالفعل قبل أن يصدر هذا العدد من الرسالة

ولكن فتوى أخرى فى الموضوع قد صدرت فعلا ، من جهة لها قيمتها العلمية ومكانتها الرسمية ، تلك الجهة هى « لجنة الفتوى بالأزهر » ؛ التى تتألف من علماء كبار يمثلون المذاهب الأربعة ، بينهم اثنان من جماعة كبار العلماء : هما فضيلة الأستاذ الكبير ، وكيل الجامع الأزهر ، وفضيلة الأستاذ المحقق شيخ السادة المالكية ، وبينهم أيضاً مفتشان رسميان يقومان بمهمة التوجيه العلمى والإشراف الفنى ، فى جميع المعاهد الدينية التابعة للأزهر ، وقد أصدرت اللجنة فتواها « بالإجماع » الصحيح ، الذى هو نتيجة اجتماع فى مكان واحد ، وتشاور ونقاش ومراجعة وإقناع واقتناع شأن المؤتمرات العلمية التى يُطمأن إلى إجماعها ، ويؤخذ به !

ونحن نضع هذه الفتوى بين يدى القراء ، قبل أن نعقّب بما نريد . قالت اللجنة — بعد أن ساقت نص الاستفتاء ، وهو لا يخرج عما أثبتناه فى مقالنا الأول — ما يأتى :

« هذه الفائدة — وإن احتوت على صلاة ، وقراءة قرآن ، ودعاء — قد حدد لها ولأجزائها التى تركبت منها زمان ومكان ، والتزمت فيها كيفية معينة : يتجه صاحب الحاجة إلى ضريح معين ، ويقرأ فيه سورة يس بالنية التى يريدها ، ثم يمشى فى طريق ضريح آخر ، حتى يصل إلى مكان مخصوص بين الضريحين ، فيصلى فيه ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه ، وحذاءه تحت إبطه ، ويتمم شوطه إلى الضريح المقصود ، وهو على هذه الحالة ، ثم يدعو هناك بدعاء خاص ، يتوسل فيه بالأنبياء ، وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثانى ، وقد اقترنت هذه العملية فى نفوس الناس باعتقاد أنها إذا أديت على هذا الوجه كانت مرجوة النفع ، وإذا لم تؤد على هـذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب

وهذه العملية بما قارنها من هذه العقيدة ، وبما فيها من الترتيب والالتزامات المذكورة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا يشهد بها أصل صحيح ، وذلك فضلاً عما يصحبها من مظهر لا يتفق وجلال الدين ، وروعة العبادة ، فهى بدعة منكرة . وإن الابتداع فى الدين كما يكون بأحداث عبادة لا أصل لهـا ، يكون بتحديد زمان

(١) عدد ٣٠٩ من الرسالة

أو مكان أو كيفية للعبادة التي شرع أصلها ، فما جعل الشارع له كيفية خاصة ، أو حدد له زماناً أو مكاناً كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج وجب اتباعه فيما حدده ، وما لم يحدد له شيئاً من ذلك ، كالنوافل المطلقة كان التحديد فيه ابتداعاً وإحداثاً في الدين ، لا يصح عمله ولا ينبغي اعتقاده . أما قراءة القرآن ، وصلاة النافلة والتضرّع إلى الله في المهمات والكُرَب من غير التزام شيء مما ذكر ، ومع مراعاة الآداب الشرعية ، فهي أمور ندب إليها الشرع الشريف ، وصحت فيها الأحاديث

واللجنة تنصح للمسلمين أن يلتزموا في عقائدهم ، وعباداتهم ، وتضرعاتهم إلى الله حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئاً من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، فإن ذلك أسلم لدينهم ، وأبعد من مقت الله وغضبه « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » والله أعلم

***

هـذه هي الفتوى الرسمية التي أصدرتها اللجنة الأزهرية وانعقد عليها إجماعها الصحيح ، وهي تناقض الفتوى الأولى التي أصدرها أحد أعضاء جماعة كبار العلماء مناقضة صريحة من وجوه :

١ — الشيخ يقرر أن « فائدة الأربعاء » جائزة لا شك فيها بل هي مرجوة البركة ، واللجنة تقرر أنها بدعة منكرة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا يشهد بها أصل صحيح

٢ — الشيخ يستدل على ما يقرر بأن هذه الفائدة مركبة من أشياء بعضها جائز وبعضها مندوب إليه ، وما كان كذلك فهو جائز شرعاً ، واللجنة تخالفه لهذا السبب نفسه ، وتقرر أن الابتداع في الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها يكون بتحديد زمان أو مكان أو كيفية للعبادة التي شرع أصلها ، وأن هـذا التحديد ابتداع وإحداث في الدين ، لا يصح عمله ، ولا ينبغي اعتقاده

٣ — الشيخ ينصح المسلمين والعلماء خاصة بعدم معارضة هذه الفائدة وأمثالها مما أُلف أن يدافع عنه ، ويحض عليه ، وأن يلتفتوا إلى محاربة المنكرات المجمع عليها التي تُركت حتى صارت

كما يقول الشيخ « سبهللاً ! » واللجنة تنصح المسلمين أن يلتزموا في عقائدهم وعباداتهم حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئاً من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، وإلا كانوا داخلين في قوله تعالى : « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »

وقد قلت من قبل مثل ما قالته اللجنة ، ونبهت إلى مواطن الخطأ في فتوى الشيخ الكبير ، فماذا استقبل الجامدون قولي ؟ لقد هاجت منهم هوائج ، وثارت نفوس ما عرفت الثورة في حياتها لشيء قط ، واهتزت لذلك أيد ، وتزلزلت أقدام : قالوا : ما لهذا العالم الحدث يعرض للكبار من شيوخه ، ويتحدى علمهم ؟ وقالوا : ما أخطأ الشيخ الكبير ، ولكن أخطأ العالم الصغير ! وقالوا : لا تصبروا على هذا الغلام الخف فيكبر أمره ، ويستدرج الناس إلى شر يصيبكم عظيم ، ثم هموا بما لم ينالوا وكف الله أيديهم وقذف في قلوبهم الرعب ، وكان الله بما يعملون بصيراً !

وأنا أريد الآن أن أقولها كلمة صريحة خالصة ، لا أريد بها إلا وجه الله ، ولا أبتغي بها مصلحة إلا مصلحة العلم والعقل والدين ، ولا أصدر فيها عن روح إلا روح الإخلاص للأزهر الذي يحمل لواء الشريعة المطهرة ، بين متربصين به ، حاقدين عليه مترقبين أن يكل عما يحمل فيتلقفوه من دونه

يا قوم : إن جماعة كبار العلماء هي « أكاديمية العلوم والمعارف الإسلامية » ، فإذا اختلف أعضاؤها هذا الاختلاف ، وكانوا في الشيء الواحد على « طرفي نقيض » دل ذلك من غير شك على فساد ، ودل ذلك على اضطراب ، ودل على أن الموازين والمقاييس التي يحملها بعض الناس في أيديهم ، ليزنوا بها ما حرم الله وما أحل ، ويقيسوا عليها الكفر والفسوق والإيمان ، موازين أقل ما يقال في شأنها : إنها تنقصها الدقة ، وتحتاج إلى « الضبط الصحيح » !

إن « فائدة الأربعاء » قد وزنت بميزانين ، تُمسك بكليهما أيد من جماعة كبار العلماء ، فسجَّل أحد الميزانين إيجاباً مطلقاً وسجل الثاني سلباً مطلقاً ، وقد سمعنا من شيوخنا المنطقيين أن السلب المطلق والإيجاب المطلق لا يجتمعان في مادة واحدة ، فلا بد إذاً أن يكون أحد الميزانين مختلاً ، فنحن باسم العلم والدين

حركات الإصلاح الإسلامية

٣ – أزمة إسلامية

للدكتور على حسن عبد القادر
دكتور فى الفلسفة والعلوم الاسلامية من جامعة برلين
ومدرس بكلية الشريعة

تقوم على قمة حركات الإصلاح الحديثة شخصية ليس لها فى الواقع دخل أو اتصال مباشر بالحركة الوهابية التى أسلفنا الكلام عنها ، وقد وصف هذه الشخصية بحق جولد زيهر « بأنها صورة غريبة ظهرت فى الإسلام أثناء القرن التاسع عشر » . ذلك هو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ — ١٨٥٧) « الذى كان فيلسوفاً ، أديباً ، خطيباً ، صحافياً ، وفوق هذا كله كان ... سياسياً »[(١)] والذى قال عنه براون فى كتابه الثورة الفارسية : « بأنه أثر خالد باق على الأجيال »[(٢)]

ولقد رحل جمال الدين من أفغانستان وجاب العالم الإسلامى وأوربة ؛ بل ومن الممكن أيضاً أن يكون قد جاب بلاد أمريكا !

(١) دائرة المعارف الاسلامية جزء ١ ص ١٠٥٢ . وراجع أيضاً كتاب الخلافة للدكتور السنهورى بك La Cabhot. P. 506

(٢) E. J. Broune, The Persian Revolution

وهو يعتبر — بدون شك — أباً لأفكار الجامعة الإسلامية : Panislamamische Jedanken على ألا نخلط بين أغراض هذه الجامعة وبين ما كان يحاوله عبد الحميد من انقلاب فى السياسة العملية . ومن الحق أن نقول : إنه كان أول من دعا إلى اتحاد ساسة المسلمين فى وجه أطماع الغرب . ولكنه كان مع ذلك يحس فى قرارة نفسه بالحاجة الماسة لبناء جديد من العالم الإسلامى تدخل فيه عناصر حرة ، ويقطع ما بينه وبين التقاليد الموروثة من صلات وأواصر . ونظراً إلى أن جمال الدين الأفغانى كان ذا نزعة صحافية ، وكانت له وجهة نظر سياسية فى الغالب تؤثر فيه ، ونظراً إلى أنه لم يكتب كثيراً ، فإنه من الصعب أن نحقق تأثير هذه الشخصية الهائلة فيمن حولها . ورغماً مما أثاره فى الغرب من ضجيج[(١)] ، فإنه من الصعب أن نستشف دخيلة نفسه ولن يحصل هذا أيضاً ، فإننا لا نعرف من أين جاءته هذه الدوافع . بل إنه لم تصلنا تأثيراته فى شكل محدد لأن تأثيره كان فى الغالب فى ثوب المعلم والمحرك أكثر مما هو فى ثوب الكاتب ؛ ولهذا فإنه من الخير لنا أن نحكم على الثمار التى نضجت على يديه . وهنا يثبت لنا أنه يرجع إليه الفضل فى تلاميذه الذين هم كبار رجال الإصلاح وذوو اليد الطولى فيه وهم يشكرون له كل ما عندهم من خير

وعند ظهور جمال الدين الأفغانى كانت تتردد فى الهند بعض أصوات ، ويدور القول حول إصلاحات آخذة فى النهوض فى وجهات وأشكال مختلفة ، ولكنا لا نعرف بالدقة مدى ارتباط جمال الدين ببدء هذه الحركة فى الهند وهل كان له فيها يد أو كان الأمر بالعكس ، فهما من ناحية التأثير يتلاقيان معاً عند خطر واحد ، وفى العصر الحاضر مع هذا يعتبر جمال الدين عند الشباب فى الهند المهد العظيم للطريق

وكانت تربة الهند فى أوائل القرن التاسع عشر قد مهدت من ناحية تأثرها قليلاً أو كثيراً بالوهابية العربية ، وكانت الحال فى الحقيقة تبدو متفقة معها ، ولو أن شكل الحركة الوهابية الشعبية

(١) راجع على الأخص محاورات ، ينان فى ختام كتاب (الاسلام والعلم) R. l'Islamisme et La Science

---

نطلب أن يصادر الميزان المختل ، وأن يحجر على الناس استعماله ، وندعو « جماعة كبار العلماء » أن تصطلح على ميزان صحيح مضبوط ، من كتاب الله وسنة رسوله « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ! »

ولكن عفوا فقد نسيت ! نسيت إنى عالم صغير ، ولا يجوز أن يتطاول الصغير إلى مقام الكبير ! . فهل من عالم كبير يحمل عبء لواء هذه الدعوة فيأخذها بقوة ، ويأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها ، قبل أن تأخذنا الأحداث ، وتأتينا سنة الله فى الغافلين ؟!

« ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

محمد المدنى

المتحمسة لم تكن هي التي غذّت الحركة الهندية الإصلاحية في روحها فإن حركة التجديد في الهند صدرت عن طبقة غير مثقفة تثقيفاً عالياً ، وكل ما هنالك أن هـذا التقابل بين هذه الحركة والحركة الوهابية يمكن أن تشرحه وتفسره هذه اليقظة التي جاءت من تلك الهزة العنيفة التي صدرت من المركز الإسلامي بالبلاد العربية

وقد ظهرت حركة الإصلاح في الهند للعيان في شكل حركة عقلية على رجال مثل سيد احمد خان مؤسس مدرسة عليكره (المتوفى سنة ١٨٩٨) قديماً، ومن أمثال أمير علي وخودا باخشا حديثاً ، وقد تأثر هؤلاء الهنود تأثراً عميقاً بما هو ظاهر ملموس في وطنهم على الأخص من تأخر المسلمين وما أصيبوا به من ضرر بالغ من جراء جمودهم إزاء المدنية الحديثة ، وهم على العموم — مخالفون في هذا جمال الدين — لم يندفعوا بدافع سياسي ، بل أنهم اعتبروا خضوع الهند للانجليز أمراً ضرورياً وأمراً مرغوباً فيه لذلك ؛ كما أن حركتهم لم تصدر أولاً وبالذات عن أفكار دينيه اقتنعوا بها . وكل ما هناك أنهم عرفوا الثقافة الغربية واتصلوا بها ، فقاموا بحركتهم تحت تأثير تأخر المسلمين . وأنهم كمسلمين محبين للاسلام — كما أحسوا — كانوا يرون أن الإسلام الصحيح الخالص لا يقف في طريق الثقافة الحديثة بأي شكل ، وأنه في الأصل هو الدين الوحيد صديق العلم والتقدم . وعنوا « الإســلام الصحيح » ولم ينكروا أن الإسلام على ما هو عليه في الوقت الحاضر فيه ما يجانب الإصلاح . وقد جاء هـذا كما قالوا من أن البحث المستقل في مراجع الدين الأصلية — يسمون الاجتهاد — غير جائز ، وأن الناس خاضعون للتقليد الأعمى من جراء الإجماع الذي طغى على الإحساس وجعل الفقه جامداً مقيداً، وأن أفكار المتأخرين سويت بتعاليم الرسول[1] ، وقد رفضوا الأخذ بأحاديث كثيرة وتمسكوا بشدة بالقرآن الكريم

وقد اعتقد المصلحون بالهند — وليس ذلك بصحيح دائماً من الناحية التاريخية — بالمعتزلة الذين صوروهم بأنهم المفكرون الأحرار واتخذوهم كمثل عليا في التجديد . وسموا أنفسهم أحياناً بطيبة خاطر « بالمعتزلة الحديثة » لأنه فيهم قد ظهرت إلى الحياة أغراض هذه الفرقة الإسلامية الحرة وجهودها

ويظهر من طبيعة الأشياء أنهم أخذوا تعاليم من طريقة هذه المدرسة القديمة مما لم يفكر فيه بعد فن هذا فكرة « تطور الفقه » التاريخية « فهم — أي المعتزلة — يرون بالنسبة للأعمال الإنسانية أنه لا يوجد قانون دائم وإن النظام الإلهي الذي ينظم سلوك الإنسان نتيجة للتقدم والتطور ، وأن الله نظم أوامره ونواهيه في شكل متدرج متطور من القانون »[1] ، وقد بحثوا باجتهاد وذكاء في شرح المعاني والأغراض في القرآن والحديث الذي يستعملونه إذا خالف ذلك أفكارهم في سبيل التدليل على أن الإســلام الصحيح يحض على العناية بالعلم بلا قيد ولا شرط ولا يخالف نتائجه ، وهنا أظهروا حقاً صورة للاسلام كمثل أعلى .

على أن هذه الطريقة التي استعملها رجال الإصلاح وإن كانت لا تقوى أحياناً على النقد التاريخي ، فإنه مما يستحق التقدير حقاً كفاح هؤلاء الرجال في قضية أضاءت في نفوسهم، والمهم في الحكم إنما هو الغاية لا الطريقة ، وهي ليست إلا محاولة لتحرير الإسلام من قيود المدنية للقرون الوسطى

والأمر الغريب هنا هو أن الخطوة الأولى لهذه الغاية الجريئة وهي رفض الفقه الإسلامي لم يقم بها على أساس ثابت مأمون ولم تأخذ اهتماماً عملياً ؛ ويظهر أن حالة التقوى تمنع من ذلك

ولـكن بجانب هذا قد مهد الطريق الآن لفهم التاريخ فهماً واضحاً لتقبل الفكرة التي تقول أن النظم المعتبرة تاريخياً لا يمكن أن تبقى سائدة دائماً ، وفي آخر الأمر يكون قد تم الانتصار على مبادئ الضعف ، وأكلت على الأقل خطوات خطاها المدافعون الأحرار عن المعارف الدينية التاريخية[2]

هذه هي كلمة الأستاذ هرتمان عن حركة الإصلاح في الهند ، أما حركة الإصلاح بمصر فوعدنا بها المقال الآتي إن شاء الله تعالى

علي حسن عبد القادر

(١) S. Ameer Ali. Sprit of Islam (Ausgabe Vou 1923) S. 183 u. 237

(١) راجع في ذلك ما قاله أمير علي في : Religion Ancient And Modern (London Archibald Constable & Co. 1906

(٢) Becher, Islam, 3, 198

التعليم المختلط

للأستاذ رفعة الحنبلي

أجابت الأمم العربية، في الآونة الأخيرة، لنوازع التجديد الأوربي الحديث من نواح عديدة، سياسية واجتماعية، أدبية وعلمية، فأخذت بالبعض منها وهمت بالبعض الآخر؛ وأبعد هذه النواحي أثراً فيها الناحية العلمية التربيوية التي أخذت بها، إذ أنها استبانت طريقها على ضوئها، وبدأت تتمشى حسب أنظمة التعليم الحديثة في معاهدها وكلياتها وجامعاتها، بعد أن بقيت ردحاً من الزمن محافظة على القديم منها، وراحت تتفهم مبادئها السليمة وتتلمس طرقها القويمة، وتزاوج بين القديم منها والحديث إلى أن أسبلت عليها رداء جديداً، وأسبغت عليها لوناً طريفاً؛ وكان أن ارتاحت إلى هذه الأنظمة وصادفت هوى في نفسها، فرضيت به كمبدأ يستحثها على مماشاة النهضات العلمية العالمية، ويدفعها إلى تبوء مركزها الرفيع بين الأمم

وفي الواقع نرى الأمم العربية قد أعدت نفسها إلى الأخذ بهذه المبادئ التربيوية — التي اعتكف علماء التربية على دراستها دراسة وافية شاملة، والتفقه فيها تفقهاً عميقاً، طوال سنين عديدة — فأقبلت عليها وسارعت إلى إقرارها؛ وكان أن تبدلت الأنظمة، وتغيرت الأسس، وتلونت المناهج وفقاً للمبادئ التعليمية الحديثة التي تتلاءم مع احتياجات المجتمع وتطور البيئات؛ ومن أهم تلك المبادئ مبدأ التعليم المختلط Coéducation الذي كثر الجدل حوله بين كبار المربين، واحتدم الكلام بين علماء النفس في منافعه ومضاره، فمنهم من أقره ورغب فيه، ومنهم من أنكره وصدف عنه، ولكل منهم أنصاره وأعوانه وحججه وتجاربه

على أن الأمم العربية لم تأخذ بهذا المبدأ — مبدأ التعليم المختلط — في جميع مراحله من ابتدائية وثانوية وجامعية؛ بل اقتصرت على الدراسات العالية، أو بالأحرى اقتصرت على الدراسة في الجامعة وحسب؛ ولذا نشاهد ارتياد الفتاة الجامعات دون غيرها

لنتصفح أوجه الرأي المختلف عليه في قضية هذا التعليم المختلط، ولندرس عناصره وعوامله ولنقف على ظاهره وخافيه؛ ولنرسم خطوطه الكبرى كي نتفهم خصائصه ونستبطن دخائله

إن أول أمة أخذت بالتعليم المختلط هي الأمة الأمريكية، وهو طريقة تعليمية جديدة من مبادئه أن يتلقى الفتيان والفتيات التعليم والتثقيف معاً في معهد واحد وفي وقت واحد، مع مراعاة درجة معارفهم ومستوى معلوماتهم وتفاوت أعمارهم دون النظر إلى الفارق الجنسي، على أن يشرف على هذا التعليم أساتذة من كلا الجنسين

والتعليم المختلط على أنواع ثلاثة: نوع يعرف بالتعليم المطلق أو التام Coéducation intégrale والغاية منه تهيئة الطلاب من كلا الجنسين للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية التي تستدعيها البيئة وتقضي بها الحضارة؛ ونوع آخر يعرف بالمدرسة المختلطة école miscte وفيها يجتمع الجنسان في الفصول وحسب؛ والنوع الأخير هو ما يطلق عليه التعليم المختلط المقيد Coéducation restreinte وهدفه تهيئة الطلاب والطالبات للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية على شرط أن ينظر إلى خصائص هاتين الفئتين من عقلية ونفسية حتى تتلاءم مع استعداد الأفراد من الجنس الواحد وميولهم ورغائبهم ومع بعض الاعتبارات والعوامل مادية كانت أو معنوية

ولتحقيق فكرة التعليم المختلط وجب تحقيقها، في بادىء الأمر، على الأساتذة الذين يشرفون عليها أو بالأحرى وجب أن تكون الهيأة التعليمية — كما يقول الدكتور Burness في كتابه القيم «التعليم المختلط في المدارس الثانوية» — مؤلفة من مربين ومربيات ليتلقى الطلاب، على المعلمات، بعض الدراسات كما تتلمذ الفتيات على بعض المربين

وإذا ما أهملنا الجانب المادي الذي يتحكم في مصير هذه الفكرة تحكماً شديداً، والذي من شأنه أن يدفعها إلى التقدم دفعاً سريعاً، ويدنيها من غايتها المثلى. على نحو ما يذهب إليه بعض علماء التربية، وجدنا أن البعض الآخر يتساءل عما إذا كانت هذه الفكرة تتفق والتطور الطبيعي من حيث القابلية والاستعداد لكل فئة من هاتين الفئتين من الجنسين؟... ربما يتعلق جواب هذا التساؤل بدراسة نفسية كل منهما من النواحي التي تتصل

اتصالاً وثيقاً بعلم النفس : كتطور الميول ، وتباين الرغائب ، واختلاف القوى واحتمال التعب وغيره

ولكن هل يصح لنا أن نرد تباين هذه النواحي إلى التربية العائلية وخصائص البيئة ومزايا الفرد ، أم أنها تتعلق بالجنس من حيث هو جنس ؟

في الواقع أن هذه النواحي ترجع إلى اختلافات جنسية ذات تأثير كبير يجعل التباين بينهما إلى أبعد حدوده

قلت : إن أول أمة فكرت في هذا النوع من التعليم المختلط هي الأمة الأمريكية ، وما أن استهل القرن العشرون حتى فشا هذا النوع في جميع معاهدها من ابتدائية وثانوية وجامعية ؛ وبلغ عدد المعاهد الثانوية بحسب إحصاء رسمي قامت به حكومة الولايات المتحدة عام ١٩٠٩ — ١١٠٧٥ معهداً مختلطاً يؤمها ٩٢١٧٣٦ طالباً وطالبة تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة منها ٩١٩ معهداً خاصاً بالطلاب عدد أفرادها ١١٠٧٢٥ طالباً ؛ مع العلم أن هذا الإحصاء لا يشمل العدد الوفير من المعاهد المختلطة التي تشرف عليها الجمعيات الخيرية والدينية ، وبلغ عدد الجامعات في إحصاء آخر ٦٢٢ جامعة منها ١٥٨ جامعة خاصة بالفتيان و١٢٩ جامعة خاصة بالفتيات و ٣٣٥ جامعة مختلطة ؛ فالفتيات إذاً يختلفن إلى المعاهد الثانوية بنسبة ثمانين في المائة ، وهي نسبة جد مرضية أما المدارس الابتدائية فيتردد عليها مئات الألوف من كلا الجنسين على السواء ...

ولم يقف هذا التجدد عند الأمة الأمريكية فحسب ، بل تعدى إلى الأمم الأخرى أشهرها التي تقطن شبه جزيرة اسكندينافية ، وكذلك الأمة الفرنسية والألمانية والأسبانية وسواها . واجتاحت موجة هذا التجدد الأمة الإيطالية أيضاً فأصدرت قانوناً في الرابع من شهر حزيران عام ١٩١١ أحالت بموجبه جميع معاهدها إلى معاهد مختلطة ، وكذلك دور المعلمين أيضاً حيث كان الانتساب إليها مقصوراً على الطلاب

وأبدت الحكومة الإنكليزية بدورها منذ مدة غير بعيدة ولأسباب اقتصادية جميع معاهدها الابتدائية والثانوية إلى معاهد مختلطة ، إلا أنها قيدت التعليم المختلط بما يختص بالتعليم الثانوي حيث يجتمع الجنسان في بعض المواد وفي المختبرات وعند تناول الطعام على أن يسمح لهما في الاجتماع في الأمسيات التي يقضونها معاً يستمعون إلى محاضرات في شتى العلوم والآداب والفنون

من هذا يتبين لنا أن التعليم المختلط قد فشا بين أكثر الشعوب المتحضرة والأمم المتمدينة وعم الأصقاع الأوربية والأمريكية وتناول بعض الأصقاع الشرقية أيضاً

غير أن هنالك نظريات متباينة ، في صدد هذا التعليم ، من حيث منافعه ومضاره ، أثارها علماء النفس والاجتماع والتربية ، اضطربت فيها عناصر مختلفة من القيم ، واحتربت فيها مذاهب كثيرة من التفكير فنرى الأستاذ Henning ، أحد المربين الأمريكيين ، لم يتوان عن إبداء رأيه المنيف فيما يتعلق باختلاط الجنسين في معهد واحد ، بعد اختبار نيفت مدته على خمسة عشر عاماً . فإذا به يقول : « لمست في المدارس الابتدائية Public Schools الصداقة العميقة والحب المنيف بين طلابها وطالباتها وقلما تشاهد فتى لا يفزع إلى رفيقة له ، حيث يختلفان معاً إلى دور الخيالة « السينما » — على حد تعبير الأستاذ البشري — وإلى المتنزهات العامة ، وكثيراً ما تتوافر الهدايا على الطالبات من الأيفاع المحبين ، وكثيراً ما تتعدد زيارات الفتيان المولهين للفتيات »

ويقول أيضاً : « أما في المعاهد الثانوية High Schools فيكفي أن تصيخ السمع قليلاً لتتأكد أن المحاورة التي يأخذ بها الطالب مع صديقته الطالبة بعيدة أقصى درجات البعد عن حل مسألة جبرية أو إعطاء رأي في قيصر أو إنعام نظر في مذهب من المذاهب الأدبية أو العلمية أو غيرها . . . » وقد لا نستغرب من الفتاة ، في هذه الحالة ، تغيبها المتواصل عن المعهد أسبوعاً أو أسبوعين بسبب هـذه النوازع العاطفية ، وبفضل هذه الأحاسيس المنيفة

حمل المربي الكبير العالم Stanly Hall على التعليم المختلط ، في مرحلة التعليم الثانوي ، حملة عنيفة ؛ استند فيها على اختباراته الخاصة التي قام بها طوال أعوام عديدة ، إذ أنه يرى الفتى يفقد شيئاً من رجولته ، والفتاة شيئاً من أنوثتها ، وكذلك يرى أن الخصائص الفردية والمزايا الشخصية ، لكل من الجنسين ، تنحدران إلى هاوية سحيقة قد لا يسلم من خطرها الفتى أو الفتاة وقد ينتج من هذا الخطر نقص في الزواج في المستقبل القريب

أو البعيد ، ولا أدل على ذلك من أن معهداً كان يضم بين جدرانه ٥٦٠ فتاة تأهل منهن أربع وستون منهن اثنتا عشرة فتاة تزوجن زملاءهن فى الدراسة

لذلك نجد أن Hail و Henning حملا على التعليم المختلط فى هذه المرحلة حملة فيها كثير من العنف والخشونة على الرغم من اعتراف الأول ببعض حسناته ؛ وتذهب السيدة Hosch Ernest إحدى المربيات العالمات مذهب زميليها ، وهى بعد تعتقد بأن تأثير التعليم المختلط هو أبقى أثراً على الفتيان منه على الفتيات ، فأولاء يحتفظن بأنوثتهن بينما أولئك يفقدون شيئاً من رجولتهم ، ودللت على صحة ما ذهبت إليه بما قامت به من الاختبارات فى عدة مدارس مختلفة الأنواع ، حيث رغبت إلى الطلاب أن يعرّفوا لها « الحب » ؛ فكانت أجوبة الطلاب الذين لم يختلطوا فى يوم من الأيام تتناول الحب الأبوى والحب الأخوى والحب الإنسانى وسواه ... أما أجوبة طلاب المدارس المختلطة فكانت تتضمن الحب الوجدانى والحب العاطفى وغيره ...

والواقع الأليم أن الفتاة لا تستطيع أن تحتفظ بأنوثتها فى اختلافها إلى المعاهد المختلطة ، بل لا بد لها من أن تفقد شيئاً منها كما نوه بذلك العالم الكبير Hail بل لماذا لا نذهب إلى أبعد من هذا الحد فنقول أن الفتاة قد تخسر شيئاً من خصائصها وتفقد قليلاً من مزاياها ، وقد يتلون قسم من عواطفها ويتبدل كثير من نفسيتها ... عوامل قد يكون لها أسوأ الأثر ليس على حياتها الحاضرة فحسب بل وعلى مستقبلها أيضاً . فالصداقة التى تتأصل فى أطواء نفسها ، وهى على مقعد الدراسة تدفعها للتعرف على الفتى من ناحية تباين والناحية التى تتعرف عليها وهى على غير مقعد الدراسة ، أو بعبارة ثانية أنها تتقرب إلى الفتى عن طريق الصداقة لا عن طريق الحب الذى تنشده ليلها ونهارها إذ تفتقر بذلك إلى الرجل المثالى Homme idéal التى تسعى وراءه

وهى إلى ذلك تتأثر إلى أبعد حدود التأثر بمعاشرتها الفتى ، فتتغير عقليتها ، وتتبدل نفسيتها ، وتتلون عواطفها ويتحول طراز معيشتها إلى حد تلتزم فيـه تقليد الفتى تقليداً قد يكون تاما أو لا يكون ، فى معاملته أو فى حديثه أو فى خشونته أو فى لباسه أو غير ذلك ، وهكذا نراها تتسم بمزايا الرجولة التى كثيراً ما تحمل الرجل بصدف عنها ويعزف عن الحياة الزوجية إذا ما فكر فى الزواج ، وقد يثور الرجل على هذا التطور فى أخلاق الفتاة ، وعلى هـذا التبدل فى نفسيتها بعد أن يكون قد قبله ورضى عنه حيناً كان طالباً

ونصيب الفتى من هذا التطور فى الميول والعادات لا يقل أثراً عن نصيب الفتاة منه ، بل ربما كان أبعد مدى فيه منها ، فإذا هو مائع الرجولة ، أنثوى الأخلاق ، فقير الخصائص ، فاقد المزايا ...

فالتقارب إذاً بين الفتى والفتاة يحور بعض مزاياه الطبيعية ويضعف بعض خصائصه الجنسية ، وإن كانت بعض هذه الخصائص ترتفع وتسمو ، وبعض هذه المزايا تذبل وتملو

على أن بعضاً من العلماء يقولون إن التعليم المختلط هو من أحسن الأنظمة التعليمية الجديدة وأرقاها ابتكرتها عقول جبارة نيرة ، فيعترفون بأفضليتها ويقرون بحسناتها ويرتاحون إلى نتائجها على أن يقتصر هـذا التعليم على الابتدائى والجامعى ؛ أما التعليم الثانوى ، فأشد ما يكون خطراً على أخلاق الناشئة وآدابها ؛ غير أن البعض الآخر يقول بالتعليم المختلط فى أدواره الثلاثة : الابتدائية والثانوية والجامعية

(البقية فى العدد القادم) رفعة الحنبلى

فن يستيقظ

للأديب نوري الراوي

فهم العربي جمال الكون بكل حواسه فأطلقه شعراً يفيض باختلاج حسه القصيّ ، ثم أنفذه نغماً في صميم الليالي الأندلسية البيضاء ... وعاد فات في عتمة الغسق التركي ، فكانت بقيته اليوم بين حشرجة الماضي ويقظة الحاضر نسيساً في نفس مجروح ، ونسمة من نسماته الندية تنطلق اليوم بعد فترة جمام كادت تطمس على خصائصه الأصيلة فتحيلها إلى العدم أو النسيان ، ولكن الله الذي حفظ الروح العربية الإسلامية دهوراً طوالاً أراد أن يوقظها في صفوة أبنائها اليوم فكان ما أراد الله

وشهدت العصور الحديثة أكثر القوى في ثورة تشمل الروح والجسد ، يدعمها الإيمان ويشدها الحق وتظللها الحرية ، فأدركت أن وراء هذه الأنفاس المقهورة نفساً يريد أن يكون لهيباً من جهنم ، وشواظاً من بركان

ولكن الزمن الذي اتسع لأمجاد الفن العربي في مختلف عصوره ، زحف زحفته المدوية ، فطوى بين أثنائه أياماً كانت شجىً في الحلق ، ليلبس ثوب هذا اليوم الحديث في سورة من التاريخ . إن وراء المجد الذي كان بالأمس، قوة من المعنى أدارت رحاه ، ونواة من الفن حفظت نوعه ، فمضى يخط تاريخه في جلال الظافر وكبريائه ، حتى دهمته الذئاب الدخيلة ! فعبثت بروحانيته كما تعبث الريح بالرمال وأجهزت على فنيته لحظاتها

وبين عصرين من عصور التاريخ ، تقلبت فيها الأحداث ، وتخبطت فيها الحظوظ ، وتعاقبت على صفحاتها الأيام ، منى الفن العتيد بخطوب جسام كادت تشرف به على الهلاك ... ولكنها الروح التي لزمته في صحارى الحجاز ودلته في بلاد المجد المفقود وهدهدت أعطافه على ضفاف بردى والفراتين عادت فاندفقت بين أضلع سادها الهدوء أزماناً ...

لقد كان الفن العربي يوصل الأمة بمعنى من الجلال يسمو بها عن المدارك الدنيا إلى أجواء أمتع وأمنع حتى إذا ما رفعت أبصارها عن الأرض ... حتى إذا ما انعتقت من أسر المادة ، فهمت الفضيلة ؛ فسادت بالرحمة وحاربت بالإيمان ... وكان هذا سر الخلود

حيثما تكن الأمة من المكانة يكن حبها للفن ، لأن النغميات مطلب من مطالب الحياة الوضيعة التي تعيش لتموت ، لا الحياة التي تعيش لتدوم ... لتخلد ... لتقول للتاريخ ها أنذا فاكتب ...

ولكنه الفكر العربي الجبار يبرهن على وجوده ، يبرهن على قوته ، يوم يعرف أن للحياة منازع غير ما علمته إياه البهيمية الأولى في الغابات والكهوف ! ... ليكون أستاذاً في تلقين المثل العليا لكل من يلوك اللفظ فلا يقع لسانه إلا على الأكل ... والنوم .. والالباس ...

هنا يقف الفكر الحديث عند حد تنتهي به سياحته ، الفكر الحديث الذي يعبد الآلة ويمجد المادة ويستعذب الوقوف أمام الصنم الجبار ؛ ليجد أن العربي سبقه في الحياة وسبقه في الفكر وسبقه في التأسيس

برهان واحد من براهين أشتات نقف منه على حياة أجيال ماتت ... لنكون نحن بقيتها على الأرض نوطن النفس على حمل هذا العبء الذي حمله الجدود أزماناً

في هذا المدى الوسيع الذي يشمل الصين في أقصى الشرق ويقف عند أزباد بحر الظلمات ؛ بذر العربي بذور فنه الأولى ، فكان الجامع الأموي في الشام يطاول بمآذنه السماء ، وكان المسجد الأقصى يهزأ بالدهر الغلاب ، وكانت معجزات الأندلس وعظائم بغداد شاهدة على ذلك الخلود . هو الغرس العربي ، يثمر رجالاً يمجدون الله ، ينتج مآذن تجلجل فوق سامقات رؤوسها كلمة : « الله أكبر » ...

ينتج فناً روحياً لم تسبقه إليه جهالات الأوربيين ...

هناك في الصحراء ... الصحراء التي يضيع البصر في مهامه مداها الوسيع ، ويسبح الفكر على منكب لجتها السمراء ، فما زال يطفو ويرسب حتى يبلغ محجة تنقطع عندها أسبابه : تمخض الزمن الولود عن دين العلم والفن ، فكانت أول بسمة من بسماته الندية ترف على روابي الحجاز وترتمش فوق بطاح الجزيرة ، ثم لا تقف عند هذا حتى تفيض على العالم القديم

بأسره فتشمله . هنا يبدأ بنا السبيل فى سياحة مضنية طويلة ، تزيد جهداً ودأباً واصطباراً ...

لقد جاء الإسلام ، وفى النفس الجاهلية اعوجاج وعنجهية ، فأقام الأول وأغرق الثانية حتى هيأها لأن تتقبل المعانى الجديدة وتستوعبها . فيقودها إلى غاية أبعد منها وأسمى ألا وهى : الفتوح ونشر الرسالة . ولقد كان الفتح أول الأسباب غير المباشرة إلى نضوج الذوق العربى لاختلاط البادية بالمدينة والشمس بالظل وتكوين لون جديد له سمة الميشتين وطابع الحياتين ، وكذلك أجزل الفتح المال والمال وسيلة الفن إلى الكمال ، حيث أثمر هذا الاختلاط فكانت ثمرته تلك الحضارة الراسخة التى قال عنها بعض الإفرنج : إنها وليدة الحضارتين اليونانية والرومانية وما هى إلا عربية أصيلة الدم ؛ لها لفحة الشمس وثورة الرمال التى لا تهدأ ولا تثوب ...

هنا يدخل الدين بروحانيته فى عداد هذه الأسباب التى أسبغت على الفن لوناً من ألوان الجمال ازاكد والتأثير العميق ... الدين الذى ارتقى بمعنويته إلى الله فعرفه ، وغار فى الأعماق فوقع على أسرار الكون وحقيقة الوجود ؛ ثم تلمس الخلود عن المادة فطاوعته فإذا هى ريازة تبهر العقول ، وإذا هى قباب تشرق فى اللازورد ، وإذا هى جوامع تبقى على الدهر باسم الله ...

أما النفسية الطليقة ... النفسية التى تجاذبتها عوامل البيئة الصحراوية المدنية ، فرسمت على أديمها صفاء السماء وكدرتها ، وخطت على صفحتها هدوء الطبيعة وثورتها ، فقد تغنت بلسان حسان ، وابن أبى ربيعة ، والمتنبى ، والمعرى ، وأبى تمام . فرجعت صدى هذه الأغنيات السنون ...

ما كان للعربى الأول أن يبرع فى فن التصوير ليعبر به عن خوالجه وآماله ومثله ، ولكنه تكلم فصدق ، وقال فكانت أقواله لوحات ترسم ألوان مشاعره منطلقة ، حرة ، عارية ؛ وهذه وسيلة واحدة يتوسل بها ربيب الصحراء للتعبير عن خوالجه ونزعاته ... لينقل كل ما يجيش به وجدانه من العواطف إلى أسماع تستلذ هذا الوقع الجميل وتستعذب هذه النغمة المطردة يلونها الزمن من حين إلى حين

على أن هذا الفن العريق الذى تتصل جذوره بأعماق الخيال البدوى كان أسبق وجوداً من بقية الفنون الأخرى

وعلى هذا السبيل الممهد تساوقت الفنون إلى البعث بعد أن كانت تثوى فى ركن من أركان العقل البدوى ساكنة سكون البركان الذى يحمل معانى الثورة والاندفاع

لقد كان للطبيعة العربية القابلية الكبيرة على الأحداث والتوليد ، وما الشعر إلا صورة من تلك الصور الممتعة التى عرفها العرب باسم « الآداب الرفيعة » ، وذلك حينما تركز المجتمع فى ظل المدينة وامتزج بعضه ببعضه ليكون هذا الفن الذى نشاهده فى قصور الحمراء وبرج الذهب وجنة الريف . . ليكون هذه الموسيقى الساحرة ترجعها نغمات « بلنسيا » ، على أسماع اللاهين من أبناء الغرب ، وفيها تتجلى الروح العربية الصافية بتأثيرها وعذوبتها وجمالها . .

* * *

ومشى الزمن يوسع الخطى ؛ فإذا بعبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس يقف على ربوة عالية ، يستشرف ملكه المضاع من خلال الهدب الرفاف بالدمع ... وإذا ذلك الخلود بجنانه وقصوره ، وأبهائه ومدارسه ، ومحاريبه وجوامعه ، يستحيل شيئاً فشيئاً إلى حلم ينطوى كلمع السراب ... ويهيم الشراع فى الفضاء :

ألا انقضى آخر أمل للعرب فى الفردوس . . . ثم تبقى تلك الجلائل شاخصة إلى السماء كأنما هى تستغيث بالله ... حتى يدركها الآن فتهوى صريعة الزمن العسوف ركاماً يسابق ركاما ... ولكن قنابل فرانكو تريد ولا يهمها أن تكون صفحة سوداء فى وجه التاريخ .

* * *

إن الاتجاه القوى فى العراق بادرة من بوادر اليقظة فى الأمة العربية فيجب أن يكون له نصيب من الروح كما يجب أن يكون له نصيب من المادة

وها نحن اليوم على وشك الدخول فى حياة جديدة مغايرة لتلك الحياة التى تصرمت بين جهل الرعية وظلم السلطان واستبداد الدخيل . وآن للفن أن يستيقظ وينشط فيأخذ مكانه كسبب خطير من أسباب الحضارة الكاملة ، وعامل من عوامل النهضة القوية ...

ولكن في الشباب من ينكر هذا ولا يرضاه، وفي الشباب من يستخف به ويجتويه. وفي الشباب مراجل يجيش فيها التناقضات، فلا تعرف فيهم الغاية اليوم إلا وتجدها غيرها التي كانت بالأمس

ولكننا رغم وجود هذه النفوس المتهاوتة، سنتم بناء أنشأته الجهود وبنته العزائم وأقامته التضحيات ...

إن كان الكلام وسيلة من وسائل الجهاد الأعزل فلا نريده إلا مقروناً بالعمل والدأب، وإن وجد فينا من يئست روحه وتصاغرت معنويته عن إدراك هذه المعاني الجديدة فلا نرضاه باسم العروبة. ولذا حق لنا أن نوجه الخطاب إلى الشباب فنقول:

أيها الشباب العامل: ما جمال الجسم إن لم يعزز بفضائل الروح؟ وما نفع هذه الرؤوس المملوءة بالخيالات إن لم تكن قادرة على ولادة الأعاجيب!

أيها الشباب العامل: روضوا نفوسكم على فهم الفن تدركوا جمال الحياة

(بغداد – الرستمية) نوري الراوي

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

إزاحة الستار

وأخيراً أزاح موسوليني الستار عن موقف إيطاليا، وأعلن اشتراكها في الحرب، دون أن يذكر سبباً معقولاً يبرر به إسالة الدماء عندما يسجل عليه التاريخ فعلته. فقد كانت شكواه من الحصر البحري الذي حد من النشاط الإيطالي

ويعرف العالم أجمع إلى أي مدى عاونه الحلفاء على تحقيق أغراضه، حتى أصبح موقفه وهو خارج الحرب أشد خطورة على المدنية منه وهو داخلها، إذ كانت مساعداته المادية لألمانيا النازية تتجاوز الحد المعقول

وبالرغم من أن الحلفاء عرضوا عليه التسوية، وأن المفاوضات سارت شوطاً بعيداً لإزالة عقبة الحصر البحري. فإن الأطماع الدكتاتورية ثارت دفعة واحدة، فإذا المفاوضات توقف فجأة دون سبب معقول

أما الأسباب الحقيقية لدخول إيطاليا الحرب فتسهل لنا في رد الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا على سفير فرنسا، إذ قال ما معناه إن إيطاليا تعلن الحرب تنفيذاً لاتفاق موسوليني وهتلر. إذن فلم يكن الحصر البحري سبب شكوى إيطاليا؛ ولم يكن الضغط الاقتصادي سبب تمردها على أساليب الحضارة وخروجها على أسس المدنية، بل الأطماع الشخصية الدكتاتورية هي التي جعلت هذين الفردين يلقيان بالعالم في أتون الحرب

إيطاليا لم تتغير

وإيطاليا سنة ١٩٤٠ هي إيطاليا سنة ١٩١٤ لم تتغير أخلاق أهلها أو طرق معاملتهم بتغير نظم الحكم، ولم يتغير حكمهم على الحوادث بتقدمهم في مرافق المدنية. فلم يتحكم في حالتها إلا الطمع والرغبة في الاستعباد. ففي سنة ١٩١٤ كانت إيطاليا حليفة لألمانيا والنمسا، وفي سنة ١٩٤٠ نراها حليفة ألمانيا التي ابتلعت النمسا. وفي سنة ١٩١٤ دخلت إيطاليا الحرب بعد تردد طال عشرة أشهر حصلت في أثنائها على معاهدة لندن فخانت من أجلها حليفتيها السابقتين وأعلنت عليهما الحرب. وفي سنة ١٩٤٠ تكرر إيطاليا نفس الموقف ولكن بصورة أخرى، فتدخل الحرب بعد تردد استمر تسعة أشهر، وتدخلها في ظروف غريبة لا لتحقق للعالم سلاماً، ولا لتضمن للناس طمأنينة، بل لتزيد في دمار العالم مستغلة الظروف الحرجة لتحاول القضاء على دولة طالما مدت لها يد المعونة، وكانت سبباً في جمع شملها وتحقيق وحدتها واستقلالها

وقد قلنا في مقالنا السابق إن إيطاليا لن تدخل الحرب إلا مكرهة، لضعفها العسكري والاقتصادي. وها نحن نستعرض أمام القارئ مقارنة بين قواتها وقوات الحلفاء في البحر الأبيض الذي يحتم أن يكون عماد القتال فيه على القوات البحرية والجوية أما القوات البرية فليس لها مجال للعمل إلا من جهة فرنسا وليبيا وفي كلا الميدانين ما يقطع بأن قوة إيطاليا البرية ستصادف عقبات كبيرة تحول دون تحقيق أغراضها

عالم عربي

فجبال الألب في فرنسا سد منيع يصعب اختراقه ويسهل الدفاع عنه. وتقع ليبيا بين مصر من الشرق وتونس من الغرب، وليس فيها قوات إيطالية كبيرة، ولذا يسهل الاستيلاء عليها إذا هوجمت من الناحيتين، ولا سيما أن عربها يحفظون لإيطاليا ذكريات أليمة عند ما أعملت فيهم قنابل مدافعها ورصاص بنادقها

ولها فى ذلك قصص منكرة من أعمال الوحشية والهمجية ، وما زالت عدة قبائل عند الحدود تنتظر ساعة الانتقام . وهناك فضلاً عن ذلك صلة الرحم بين سكان ليبيا ومصر وصلة الدين وصلة اللغة ، وهى صلات يحرص العربى عليها مهما كلفته من تضحيات . فما إن تبدأ المناوشات حتى تصحو هذه العوامل ، فيشمر المسلم بعوامل الدين تناديه ، ويحس ابن العم بصلات الدم تمنعه من إهدار دم ابن عمه ، فلا تلبث ليبيا أن تخرج من الامبراطورية الايطالية لتنضم إلى العالم الاسلامى

هذا فى ميدان البحر الأبيض ، أما فى ميدان شرق أفريقيا فلايطاليا هناك ثلاث مستعمرات هى الأريتريا والحبشة والصومال الإيطالى، وتحيط بها الممتلكات البريطانية من جميع الجهات، تلك الممتلكات التى استقر فيها نظام الحكم ودانت بالولاء للامبراطورية البريطانية ، بعكس الحالة فى الحبشة مثلاً ، فهى قريبة العهد بالغزو ، وما زال أهلها يقاتلون الإيطاليين فى أكثر من بقعة واحدة ، ويشنون الغارات على حامياتها كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . وها هو امبراطور الحبشة يظهر فى الميدان ليستغل الفرصة السانحة ، وسيمده الحلفاء ولا شك بالعتاد الحربى الكفيل بخلاص بلاده من نير الحكم الإيطالى

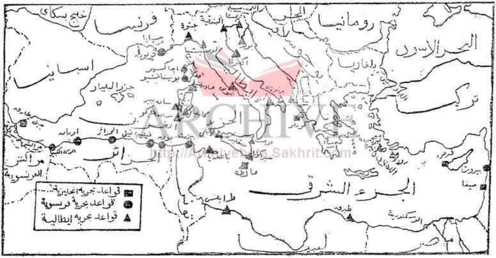
الامبراطورية الايطالية

ورغم اتساع رقعة الممتلكات الإيطالية فعدد سكانها قليلون ، وهم على درجة كبيرة من التأخر . ويبين الجدول الآتى مساحة كل مستعمرة وعدد سكانها مضافاً إليها إيطاليا نفسها :

اسم البلد	المساحة بالميل المربع	عدد السكان
إيطاليا	١١٩ر٧٤٤	٤٣ر٦٤٠ر٠٠٠
ألبانيا	١٠ر٦٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠
ليبيا	٤٠٦ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠
أريتريا	٤٥ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠
الحبشة	٣٥ر٠٠٠	٧ر٦٠٠ر٠٠٠
الصومال	١٣٩ر٤٣٠	٦٥٠ر٠٠٠
المجموع	٧٤٥ر٧٧٤	٥٤ر٣٩٠ر٠٠٠

هذه هى الإمبراطورية الإيطالية التى لا تلبث الحرب أن تفصلها عن إيطاليا ، لا سيما أن أسطول الحلفاء مرابط عند قناة السويس ليمنع وصول القوات الإيطالية بأفريقيا الشرقية الإيطالية وهذا العزل سيؤدى بلا شك إلى خضوع تلك البلاد للحلفاء بعد أن تفنى القوات الإيطالية المرابطة هناك أو تقع فى الأسر

ولم تكن هذه العوامل خافية على موسولينى ومستشاريه ، ولكنها تدل دلالة واضحة على سوء نيته قبل دول البحر الأبيض فسياسة المحور القضاء على فرنسا وإنجلترا ثم يتحول إلى الدول الصغيرة ، فلا تقوى واحدة منها على مقاومة الاستعمار الإيطالى أو الألمانى، وعندئذ تتحكم الهمجية فى العالم أجمع ، ويخضع العالم لانتقام الدكتاتوريين . ولكن هيهات أن يتحقق هذا الأمل ، فقوات الحلفاء فى فرنسا ما زالت بكامل عددها ومعداتها ، ولن يؤثر فيها تقدم الزحف الألمانى وتوغله فى البلاد



وسواء بقيت باريس بيد الحلفاء أم سقطت في يد الألمان ، فسيأتي اليوم الذي تتلقى فيه جيوش ألمانيا الضربة القاطعة، فالعبرة في الحروب ليست في الاستيلاء على المواقع والمدن ، ولكن العبرة بالقضاء على الجيوش . وإذا اتخذنا من التاريخ مثلاً ، فأمامنا نابليون وحروبه ، فقد استولى على أوربا كلها تقريباً . وظلت انتصاراته سنوات طويلة تدوي في آذان العالم . فلما نضبت موارده وحانت الساعة الفاصلة هزم في واترلو هزيمة لم يقم له بعدها من قائمة . وكانت ختام ذلك النزاع الطويل

سواحل مكشوفة

ومن عوامل ضعف إيطاليا انكشاف سواحلها وخلوها من العقبات الطبيعية التي تمنع الاعتداء، فليست البلاد عريضة يتعذر على الطائرات اجتيازها ، وليست صخرية أو صحراوية يتعذر على الجيوش عبورها، بل هي سهول ضيقة، تجد فيها القوات مؤونتها بسهولة فضلاً عن قربها من مواقع الحلفاء العسكرية، فلا تبعد روما عن مينائي طولون أو أجاكسيو سوى ٣٠٠ ميل تقطعها الطائرات الحديثة في ٤٠ دقيقة ، ولهذا عجل موسوليني بنقل قيادته منها

وتيسر لإيطاليا في الحرب الماضية أن تجند ٥٠٠ر٠٠٠ر٥ جندي. وتستطيع الآن أن تجند ثمانية ملايين جندي بفضل النظام الفاشستي . ومجال هذه الجيوش محدود كما رأينا ، كما أن الجندي الإيطالي لا يمكن أن يقاس بالجندي الألماني أو الفرنسي أو الإنجليزي ، خصوصاً أن معداته أقل بكثير من معدات أقرانه . فإذا أمدته ألمانيا بالعتاد والقيادة كما جاء في التلغرافات برزت عقبة أخرى وهي ضيق موارد الدولتين الدكتاتوريتين ، ولا سيما أن ألمانيا وضعت في الموقعة الحالية جميع مواردها أملاً في نصر سريع

القوات الجوية

وتقدر قوات إيطاليا الجوية بخمسة آلاف طائرة أعدت على أساس هجومي وهي أقل متانة من الطائرات الفرنسية أو الإنجليزية ، وتستورد ٢٣ ٪ من معادن طائراتها من الخارج ؛ ولم تتقدم صناعة الطائرات هناك في المدة الأخيرة ، بل يقول الإخصائيون إن تقدمها بطيء لحاجتها إلى الفنيين والمعادن . وفرض الحصار عليها معناه زيادة هذه الصعوبات . فإنها تفقد ربع إنتاجها بفقد المعادن المستوردة من البلاد الأخرى . ومراكز الطيران الإيطالية موزعة في الحبشة وليبيا وألبانيا ، وأنبأتنا التلغرافات أخيراً بتدمير قوات الطيران البريطانية لعدد كبير منها مما يضعف من شأنها، ويقابلها عند الحلفاء ٢٢ ألف طائرة في ازدياد

وفي البحر

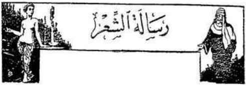
ويمتاز الأسطول البحري الإيطالي بسرعة سفنه ، وهو أسطول حديث تصل سرعة بعض وحداته إلى ٤٥ عقدة في الساعة أي أكثر من ٥٠ ميلاً ، ويقابله في الجانب الآخر زيادة عدد الوحدات البحرية للحلفاء والجدول الآتي يبين وحدات القوتين :

نوع السفن	الحلفاء	إيطاليا
سفن قتال كبيرة	٢٥	٦
مدرعات ثقيلة	٢٢	٧
حاملات طائرات	١١	—
مدرعات خفيفة	٦٩	١٤
مدمرات	٢٣٠	٨٢
قوارب طوربيد	١٢	٧٠
غواصات	١٣٧	١١٢
المجموع	٥٠٦	٢٩١

وتعمل قيادة الحلفاء البحرية على الاشتباك مع هذا الأسطول في معركة بحرية، ولذا أسرعت ببث الألغام في مدخل بحر الأدرياتيك حتى لا تدع له مجال الالتجاء إليه ، فيضطر إلى قتالها ، فإذا تيسر إغراق هذا الأسطول أو الخلاص من بعض وحداته كما حدث مع الأسطول الألماني ، تم للحلفاء جانب كبير من النصر؛ فبرغم صيحات هتلر وأتباعه بتفوق السلاح الجوي على السلاح البحري ؛ فإن موسوليني لم يأخذ برأيه . والدليل على ذلك أنه أنزل إلى البحر في الشهر الماضي سفينتي قتال كبيرتين

وقد منى الأسطول التجاري الإيطالي في اليومين الأولين للحرب بخسائر فادحة فقضى على ٤٠ سفينة منه، بعضها بالانتحار وبعضها الآخر بالأسر . وهذا تصرف غريب من إيطاليا ، فبرغم أنها أرادت الحرب وأنها تجد الفرصة لإنقاذ هذه السفن، تركتها في أماكن خطيرة . والأغرب من هذا أن بعض السفن كان في مالطة، وهي تبعد عن صقلية بمسافة بسيطة، ومع هذا تركها لتؤسر؛ ومن هذه التصرفات يبدو مدى حزم القيادة الإيطالية ، ومدى إحكام تصرفاتها الذي ينبئ بأن كوارث شديدة ستحل بقواتها

فوزي الشتوي
بكالوريوس في الصحافة



رجال ونســـاء

للأستاذ علي محمود طه

[ننشر فيما يلي جزءاً ثانيا من ملحمة الشاعر « علي محمود طه » وهو يلي الجزء الذي نشرناه منها في عدد سابق من «الرسالة» ويدور الحوار في هذا الفصل الممتع على الفنان الأول ، وأثر المرأة في فنه واتجاهاته ، وفيه أيضا حديث مؤثر من الفنان الأعمى ، والأسماء التي يجري الشاعر الحوار على ألسنتها تقع في عالمي الحقيقة والخيال . فهرميس إله الوحي والشعر في الميثولوجيا ، وبليتيس الشاعرة الخرافية التي بعثها الكاتب الفرنسي « بيير لويس » على غرار الشاعرة اليونانية اسبازيا . أما تاييس وسافو فأمرهما معروف في القصص والتاريخ]

(الملك وقد عاد في طريقه إلى حيث الحوريات بعد أن ودع روح الفنان على أفق الأرض)

الملك :

سلامَ الملائكِ روحَ الجمالِ

الأرواح :

سلامٌ لهرميس روحِ الإلهْ

الملك :

أرى وَمْضةَ الشرِّ في جوِّ كنٍّ   وأسمعُ صوتاً كأنِّي أراهْ
يلاحقني في رحابِ السماء   ويرتجُّ في مسمعيَّ صداه
« لقد فارقَ البشرُ غُرَّ الوجوهِ   وشاعَ الذبولُ بوردِ الشفاه ! »

الأرواح :

أجلْ أيها الملكُ المجتبَي   صدقتَناكَ فاغفرْ عذابَ الضميرْ
لقد مرَّ كالطيرِ من قربنا   فتًى في رعايةِ ربٍّ خطيرْ
رآنا فأعرَضَ عنَّا ولمْ   يُحَيِّ السماءَ بروحٍ قريرْ
تعاظمَ محتقـــراً أمرَنا   وأمعنَ في شَرِّهِ المستطيرْ !

هرميس :

ظلمتنَّ هذا الغـلامَ البريء   وقد غَضَّ من ناظريهِ الحذَرْ
أَهَلَّ بقلبٍ كفرخِ القطا   يرفرفُ تحتَ جناحِ القدَرْ
رآكنَّ فيـــهِ وحيَّا بهِ   فـلم أذرِ حاجتَه للنظرْ !

الأرواح :

وكيف تكلمَّ قلبُ الفتى   وما هو إلاَّ سليلُ البشرْ ؟

هرميس :

هُوَ ابنُ السماءِ ولكنَّهُ   من النقصِ تركيبُه والتمامْ
صَنَاعُ الطبيعةِ بلْ صُـنْعُها   فنها دمامتُـــهُ والوسامْ
يُسِفُّ إلى حيث لا ينتهي   ويسمو إلى قمـةٍ لا تُرامْ
ويُسْقَى بكأسِ إلهيـــةٍ   مُرَنقـــةٍ بالهوى والأثامْ

***

نقيضانِ شتَّى فما يستقرُّ   على غضَبٍ منهما أو رضاءْ
تحدَّى الحيـــاةَ وآلامَها   بيأسِ الجبـــابرةِ الأعلياءْ
يزيدُ عُتُـــوًّا على نارها   ويلمعُ جوهرُهُ مِنْ صَفاءْ
وينشقُّ عن نَضْرةٍ قلبُـــه   وإنْ طَمَرَتْهُ ثلوجُ الشتاءْ

***

هو القلبُ محتشـــداً بالمنى   هو العقلُ مُتَّقدًا بالذكاءْ
حَبَتْهُ الألوهَةُ روحًا يَرَى   وينطِقُ عنها بوحي السماءْ
يَحُسُّ الخيالَ إذا ما سَرَى   ويلمسُ ما في ضميرِ الخفاءْ
ويبتدرُ النجمَ في أفقـــهِ   فيرشُفُهُ قطرةً من ضياءْ

***

أرَتْهُ السماءُ أعاجيبَهـــا   ورَوَّتْهُ من كلِّ فنٍّ بديعْ
فضنَّ بلألاءِ هـــذا الجمالِ   وخافَ على كنزِهِ أن يضيعْ

أبَى أنْ يُبدِّدَهُ ناظراه   فأطبقَ جفنيهِ ما يستطيع
فإن شارفَ الأرضَ نادتْ به   فَفَتَّحَ عيناً كعينِ الربيع

الفنار الأول

هنالكَ حيث تَشبُّ الحياةُ   وحيث الوجودُ جنينُ العَدَمْ
وحيثُ الطبيعةُ جبارةٌ   تشقُّ الوهادَ وتبني القِمَمْ
وحيثُ السعادةُ بنتُ الخيالِ   ولذَّتُها من معاني الألَمْ
وحيثُ الطريدانِ شجّا الكؤوسَ   ومجّا صُبابتها من قِدَمْ

* * *

رَنَا ، والطبيعةُ في حليها   وحواءُ عاريةٌ كالصَّنَمْ
فمن أين سارَ وأنَّى سرَى   تَصَدَّتْهُ مُقْبِلَةً من أَمَمْ

* * *

هنالك أول قلبٍ هفا   وأولُ صوتٍ شدا بالنَّغَمْ
وأولُ أنمُلَةٍ صوَّرَتْ   وخطَّتْ عَلَى اللوحِ قبل القلَمْ

* * *

فما لكِ حواء أغويتِه   وأعقبتِهِ حسَراتِ النَّدَمْ
لقد كان راعيكِ المجتبى   فأصبحَ راميكِ المتَّهَمْ
ولولاكِ ما ذرفتْ عينُهُ   ولا شامَ بارقةً فابتسَمْ
وعاشَ كما كانَ آباؤه   يُغنِّي النجومَ ويرعى الغنَمْ !

الفنار الأعمى

لأجلكِ يشقى بلمحِ العيونِ   ويُصْرَعُ بالنظرةِ العابره
لَوَدَّ إلى الأرضِ لو لم يُصِخْ   أو ارتدَّ بالمقلةِ الحاسره
وكم من فتى عزَّها سمعُهُ   وغضَّ عَلَى رَهَبٍ ناظره
عصاها ، فنادتْ ، فلم يَستمِعْ   خَلَتْ به لمنةُ الفاجره !

* * *

له محجرانِ على ما وَعَى   من الألَقِ الطُّهْرِ مختومتان
ففي عقلِه حركاتُ الزمان   مُصوَّرَةٌ وحدودُ المكان
وفي قلبِهِ أعينٌ ثرَّةٌ   بها النارُ طاغيةُ العنفوان
وفي كلِّ خاطرةٍ نيزكٌ   يشقُّ سَناهُ حجابَ الزمان

* * *

إذا ما هَوَتْ وَرَقاتُ الخريفِ   أحسَّ لها وَخَزاتِ السِّنانْ
وإن سَكَبَتْ زهرةٌ دمعةً   فمن قلبِهِ انحدرتْ دمعتان
ومن تَحجب شَذْوُهُ للربيع   وقد يُخطئُ الطيرُ شدوَ الأوان
كقيثارةِ الرِّيحِ[1] ما لحنُها   سوى الريحِ في جفوةٍ أو حنان

* * *

عوالمُ جيّاشةٌ بالمنى   ودنيا بأهوائها تضطربْ
من اللانهاية ألوانُها   مشعشعةٌ بالندى المنسكبْ
فيها الصباحُ ، وفيها المساءُ   وبينهما الشفقُ الملتهبْ
تطوفُ بها صَدَحاتُ الطروبِ   وتسهو بها أنَّةُ المكتئبْ !

علي محمود طه

(١) قيثارة كان الأغريق القدماء يعلقونها على الشجر فتصدح أوتارها بمرور الرياح أو هبوب النسيم عليها ، وكأن أنغامها صوت الطبيعة الناطقة بأحاسيسها





تأملات

فى الأنتراكت

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يقضى الأستاذ عزيز عيد فى هذه الأيام فترة من حياته تشبه فترة « الأنتراكت » فى عمله . وهو لا يقضيها متكاسل العقل راكد الحس ، وإنما هو يشغل نفسه فيها بالإقبال على معاشرة حيوان ، والتأمل فى شعوره وأسلوبه ، وتعبيره عن هذا الشعور وطريقته فيه ، وما قد يصاحب هذا من تفكير يسير أو كبير

وهذا الحيوان الذى يعاشره الأستاذ عزيز ويدرسه فى هذه الأيام كلب اسمه « بوى » وهو يربيه منذ سنوات ويعزه ويحبه حبه لأوفى ربيب كفله

والوقت الذى يقضيه هذان الصديقان الصدوقان معاً لا يختلف فى شىء عن الوقت الذى يقضيه كل صديقين صدوقين فهما يجلسان معاً يتسامران ، وهما يخرجان معاً يتريضان ، وهما يتشاغبان ويتصارعان ويتلاكمان ، وهما أيضاً يتصالحان ويتخاصمان ، ويتعاتبان ويتقابلان ويتمارضان . . . أما (بوى) فهو مع صاحبه مخلص صادق نقى الإخلاص والصدق ، وأما صاحبه فلا يقل عنه إخلاصاً وصدقاً وإنما هو يزيد عنه التفاتاً إلى ما بينهما من الإخلاص والصدق ، وإلى ما هما فيه من عناء الحياة والأحياء

يجلس الأستاذ عزيز مع صاحبه يحدثه عن آلامه مما فات وعن آماله فيما هو آت ، والكلب قاعد ينظر إليه مصغياً منتبهاً إذا رأى صاحبه طرب فقد طرب معه ، وإذا رآه أسف فقد يأسف معه حتى يمل الأستاذ عزيز عيد فيستأذن (بوى) فى أن ينصرف ، أو يرجو (بوى) لينصرف هو ، وما أسرع (بوى) إلى أن يطيع وأن يلبى الرجاء كما يلبى النداء

فيه كل معانى الحياة ودلائلها ، وليس ينقصه إلا أن يعرف التعريب المعقد منها كى يساوى الإنسان فى موقفه فيها

خرج يوماً مع صاحبه إلى رياضة فى الخلاء على مقربة من طريق القطار ، ولم يكن قبل ذلك قد رأى قطاراً . ويروى الأستاذ عزيز هـذه القصة فيقول : « سمع (بوى) صوت القطار وهو مقبل من بعيد يصفر ويرعد فبدا عليه الذعر وصاح فىّ ينبهنى كأنما حسبنى فى غفلة عنه ، وكأنما حسبه وحشاً ضارياً جباراً يعدو إلينا ليفتك بنا ، وكأنما هالته قوة ذلك الوحش كما هاله ضعفنا جنبه ، وكأنما كان بصراخه يريد أن يقول لى : خذ حذرك واتق هذه النازلة ، وأنقذنى معك إذا استطعت ، فلست بقادر على صده عنه ولا دفعه عن نفسه ، حتى ولا عرقلته عنك ريثما تفر . . . لقد كان (بوى) يقول لى هذا كله فى صراخه فقلت له : لا تخف يا (بوى) فهذا قطار . . . ورآنى (بوى) مطمئناً فاطمأن إذ أدرك أنه لا يمكن أن يملأنى هذا الاطمئنان كله لو كان هـذا القطار المقبل وحشاً ضارياً مفترساً . ولكن القطار اقترب وضجته تعالت فتوسط (بوى) ما بينى وبين القطار وهاج وجن نباحاً ، فاضطررت إلى أن أقف وأن أضمه إلى ريثما يمر القطار ، فضممته ونظرت فى عينيه أؤكد له الأمان والسلامة ، فاذا بعينيه ترسلان إلى نظرة معناها : هأنذا معك ، وإن كنت ترانى خائفاً فإنما خوفى عليك أكثر من خوفى على نفسى » . . . ويسترسل الأستاذ عزيز فى وصف نظرات (بوى) بما لم يصف به نظرات ممثل ولا ممثلة

ويروى الأستاذ عن صاحبه قصة أخرى فيقول : « كان لنا جار وكان لجارنا كلبة ، وكان بين بوى وبين هذه الكلبة غزل وغرام لم يرض عنهما الجار ، فكان يطرد (بوى) كلما رآه يحوم حول معشوقته ، حتى كان يوم ضرب فيه الرجل (بوى) بعصاه ضربة قاسية آلمته ولم يستطع معها إلا أن يفر هارباً ، وليس من عادة (بوى) أن يهرب ولا أن يفر . ومضى الرجل إلى حاله فى ذلك اليوم . ولكن بوى كان يعرف مواعيد دخوله

وخروجه، فبدأ ينتظره ويتعمد انتظاره ليفجأه يوماً فينهشه نهشاً، ولـكن الرجل كان يتقي دائماً هجمات بوى بعصاه يلوح له بها ، والعصا أداة كفاح إنسانية يخشاها كل كلب ويعجز حيالها . وشكا لى الجار (بوى) ، وقال لى : صحيح إن العصا تقيني هجماته ولـكني قد أغفل يوماً عنها فلا أسلم منه ، فأرجوك أن تنتبه إليه وأن تمنعه عنى ، فقلت لجارى : أنت الذى وقفت نفسك هذا الموقف ، فقد كان عليك أن تعرف أن لهذا الـكلب كرامة ، وأنه يعلم تمام العلم أن الذى يعلقنا به هو رغبتنا فى حمايته ، فإذا ثبت لنا وله ولك أنه عاجز عن حماية نفسه فقد نتخلى عنه وهو يكره هذا ، لأنه عاشرنا مدة ما فأحبنا كما رأى أننا نحبه ... فعليك إذن أن تحمى منه نفسك ، لأنى لو نهرته عنك بعد الذى كان منك أغراه ذلك بقبول الذل والضيم ، وكنت أنا محرضه ودافعه إلى هذا ... فقال لى الرجل : إن هـذا لا يمنعك من أن تحول بين كلبك وبينى ... وكنت من يومها أنتظر خروج الجار ودخوله مع كلبى لأشغل الـكلب عنه ولأمنعه من الفتك به أو الهجوم عليه ، وكنت أرى فى الـكلب تعجباً من موقفى هذا ودهشة لو كان ينطق لعبر لى عنهما بقوله : فيم حيلولتك بينى وبين هذا القاسى ، وقد رأيت أنه ضربنى ولو رأيت أنا أحداً ضربك لما حلت بينك وبينه وإنما كنت عليه معك ؟ ... ثم خطر لى أن أصلح ما بينهما ، فانتظرت مرور الرجل يوماً فاستوقفته وناديت (بوى) وأخذت أربت على كتفى الرجل ، وأربت على كتفى الـكلب ، وأقول لـكل منهما إن الصلح خير ، وأقول لـكل منهما إن الصفح والعفو من شيم الكرام ، وأقول لـكل منهما إنه من الممكن أن يتناسيا الماضى وأن يستأنفا الصداقة من جديد ، ثم أشرت إلى الرجل فبدأ يمسح للـكلب ظهره ، فراغ الـكلب فى أول الأمر رافضاً هذا الصلح ، ولـكنه لما رآنى أستحسنه وأطلبه منه مسح رأسه هو أيضاً فى ساق الرجل ثم نظر إلىّ يقول بنظرته : لقد صفحت عنه لـكى ترضى ...

ويجر هذه القصة إلى ذاكرة الأستاذ عزيز قصة أخرى فيقول : وقد تخاصمت أنا ذات مرة مع بوى ، فقد كنا نلعب معاً ، ومن عادتنا إذا لعبنا معاً أن أضربه ضرباً خفيفاً وأن يعضنى عضاً خفيفاً ، وأن يسامح كل منا الآخر فيما يناله من ألم الضرب الخفيف أو العض الخفيف ، لأن كلا منا يعلم أن هذا مزاح ولعب ولا أكثر، غير أنى فى تلك المرة برعت فى مشاكسة (بوى) حتى اغتاظ غيظاً شديداً فعضنى عضة أسالت الدم من إصبعى ... فرأيت هذا ذنباً لا يمكن أن يغتفر لأنى إذا اغتفرته فقد لا يحسبه (بوى) ذنباً ، وقد لا يجد بعد ذلك مانعاً من أن يعضنى عضة أقوى من هذه العضة ، وقد يكون فى ذلك ضرر من الخير أن أتقيه وألا أنتظر حتى يحدث فأعالجه . . . فأمسكت فى يسراى بكرسى جعلته درعاً ، وفى اليمنى عصا انهلت بها على (بوى) ضرباً موجعاً مبرحاً علم الله أن كل ضربة منه كانت تنزل على قلبي قبل أن تنزل على جسمه ، ولـكنى كنت أرى أنه لا مفر من هذا الضرب عقاباً وردعاً ... وبعدها خاصمت (بوى) وخاصمنى (بوى) أيضاً ... خاصمته : فلم أعد أكلمه ، ولم أعد أناديه ، ولم أعد أسامره ، ولم أعد ألعب معه . وخاصمنى : فلم يعد ينتظرنى ليلاً ، ولم يعد يدنو منى نهاراً ، ولم يعد يمس طعامه الذى كان يوضع له ... ودام هكذا ثلاثة أيام ، كان خلالها كلما رآنى ألقى إلى نظرة معناها عند من يفهمون النظرات : لا تكلمنى ، ولا أكلمك ، وأنت تعرفنى وأنا أعرفك ... أنت لم تسامحنى ولـكنى سامحتك ... وكنت أنا أنظر إليه وأقول له بعينىّ : الذنب ذنبك والبادئ أظلم ... ومع هذا الخصام ، وفى عزه وشدته ، كنت ألمح (بوى) وأنا أرتدى ملابسى أمام المرآة ، يدنو من باب الحجرة مخفياً جسمه كله ويطل إلىّ بعينيه كمن يريد أن يرانى صحيحاً سليما معافى ، وكن يكفيه أن يرانى كذلك ... وكنت أنا أتغاضى عن نظرته هذه ولا أبدى له التفاتى إليها ... حتى كان اليوم الثالث ، فالتقت أعيننا ، فإذا بهذا الذى كان فى عينيه يذوب ويتلاشى ، وإذا بعينيه تلمعان عوضاً عنه بقوله : أما اكتفيت خصاماً ؟ ! إنه ليس لى أن أبدأك بالصلح فربما كنت لا تزال غاضباً أو مستاء . . . ! عندئذ انخذلت أمام هذا الوفاء الصامت ، وابتسمت وناديته وقلت : لقد كانت عضة مؤلمة يا (بوى) ، وأظنك لا تذكر أنى ضربتك قبلها ضربة مؤلمة ... صحيح أن (بوى) لم يكن ليفهم معانى هذه الـكلمات جميعاً مفصلة ... ولكن (بوى) أدرك من صوتى ومن بريق عينى

— كما يدرك دائماً — أى حالة نفسية أنا فيها . . وفى هذه الساعة أدرك (بوى) أنى أعاتبه ، كما أدرك أن الموقف يقتضيه الاعتذار عما بدر منه ، فأطرق برأسه وبعينيه البليغتين إلى الأرض ، واقترب منى متباطئاً متذللاً مسترضياً فمسحت له ظهره بيدى ، فقبل يدى بلسانه ، فعانقته وعانقنى وعدنا صديقين حبيبين »

* * *

بهذا الوضوح ، وبأ كثر منه تفصيلاً يتحدث الأستاذ عزيز عيد عن كلبه (بوى) ، وهو كلب من ذلك النوع الضخم الذى يسمونه « وولف » والذى كان منه فقيد السينما « رن تن تن »

وليس (بوى) ولا « رن تن تن » بمفردين فى الكلاب فهما يدركان ما لا يدركه غيرهما من أفراد جنسهما ، بل ولا جنس الكلاب بمفرد فى الحيوان فهو وحده الذى يشعر بالحياة ، والذى يعبر عن شعوره فيها والذى يتفهمها فهماً يسيراً أو فهماً كبيراً ، وإنما كل الكلاب مثل (بوى) و « رن تن تن » وكل الحيوانات مثل الكلاب وإن كانت تختلف فى أنصبتها من الحياة . وإذا كان الناس متشاغلين عن الحيوانات ، فإن لها من الشعراء والفنانين نصراء وأصدقاء يعاشرونها ويتفاهمون معها ، ويدرسونها الدراسة الحية القائمة على المعاشرة وتبادل العواطف ، وهذه الدراسة أشرف بكثير من تلك الدراسة التى يعمد إليها العلماء مع الحيوان

وقد يعانى الفنانون استهزاء كبيراً من العامة والمثقفين لهذه النزعة ، وهذه النزعة وحدها هى التى ستكشف للبشرية بعد جيل أو أجيال عن حقيقة موقف الإنسان من هذه الأحياء التى شاء الله أن تعيش معه على ظهر هذه الأرض . وإذا كان الإنسان يدعى أن له فى هذه الأرض السيادة ، فإن عليه أن يستكمل لهذه السيادة شروطها ، وأول شرط منها أن ينظر فيما سخره الله له من الخلائق ، وأن يفهم طبائعها حتى يستطيع أن يركن إلى كل منها يطلب عنده علماً بما يجهله وبما آتاه الله الحيوان من قوى

وإذا كان الإنسان يرى فى بعض الحيوان بأساً وقوة يخشاها فكل حيوان يرى فى الإنسان دهاء وخبثاً يخشاها هو أيضاً ويتقيهما ويقاسى منهما الأمرين ، وعندما يأمن الحيوان جانب الإنسان فإنه من غير شك يوليه بذلك أماناً وصداقة ، والإنسان يستغل فى نفسه هذا الامتياز منذ القدم ، ولقد استأنس به أسوداً وفيلة وطيراً ووحشاً ، ولعل القدماء كانوا أحسن عشرة للحيوان منا ، فنحن قد خربتنا مدنيتنا وشغلتنا حتى لم نعد نعبأ إلا بأن نكون سادة ، ولو كنا الطغاة الجاهلين . . .

عزيز أحمد فهمى



قصة الإمام الزهري

شكرت للكاتب الأديب أحمد جمعة الشرباصي للفرصة التي هيأها لي للكلام في مسألة دار حولها قول كثير ، ونقلت عني نقلاً غير صحيح ، وهي تجريح الإمام ابن شهاب الزهري أثناء محاضراتي بكلية الشريعة الإسلامية . وحقيقة الأمر هو أني كنت أعنى في محاضراتي عن تاريخ علم الحديث بتعريف الطلاب طريقة البحث الحديث في نقد الأحاديث ، وأضرب لهم في ذلك الأمثال ، وكان من هذه الأمثلة ما ذكرته لهم من نقد بعض المستشرقين ، وهو جولدزيهر للامام الزهري وأحاديثه التي رواها في فضائل الشام وبيت المقدس ، وخلاصة هذا النقد هو أن الإمام الزهري كانت له صلات وروابط بالبيت الأموي ، وأن عبد الملك ابن مروان كان منع الناس من الحج أيام فتنة الزبير ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها ، ثم أراد أن يبرر عمله هذا ، فوجد في الزهري — ومقامه الديني معروف — آلة لوضع أحاديث مثل الحديث المشهور : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هـذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى »[1] . ولكن رأي هذا المستشرق قد فند بعد ذلك، وخُطئ بشدة من المستشرقين أنفسهم الذين رأوا فيه مخالفة تاريخية واضحة . وإليك مايقوله المستشرق فينسنك في ذلك : « وقد زعم بعضهم — يعني جولدزيهر — وضع حديث «لا تشد الرحال» . وهو حديث مذكور في جميع كتب السنة المعتبرة ، وذلك لكي يجعل الحج إلى بيت المقدس مثل الحج إلى الكعبة ، ولكي يحمي الخليفة عبد الملك في حربه ضد ابن الزبير الثائر عليه بالبلاد المقدسة » . ولكن هذا الاتهام لمثل هذا المحدث الكبير تسقطه الأدلة التاريخية ، فإن خروج ابن الزبير كان في سنة ١٤ — ٧٣ هـ ، والزهري الذي ولد سنة ٥١ هـ أو بعدها كان في هذا الوقت شاباً لا أهمية له ، ولم يكن قد بلغ بعد شهرته في الحديث ، ومثل هذا الوضع لا يمكن أصلاً أن يكون لأن الإمام الزهري من الرجال الثقات . وكان سعيد بن المسيب الذي روى عنه هذا الحديث لا يزال حياً فإنه توفي سنة ٩٤ هـ. وبالطبع كان لا يمكن أن يقبل أن يستعمل اسمه استعمالاً سيئاً ، خصوصاً إذا عرفنا أن الزهري ليس هو وحده الذي روى هذا الحديث عن سعيد» . هذا هو كلام فينسنك (راجع مجلة المستشرقين الألمانية عدد ٩٣ ص ٢٣)[1]

(١) Goldziher, Muhammadanische Stuedien, 2, 38-39

فهل تراني بعد هذا أشك ذرة في ثقة الإمام الزهري بعد أن شهد له الأصدقاء والأعداء ، وتضافرت على إمامته الأبحاث القديمة والأبحاث الحديثة ؟ أم ترى أن ما نقل عني قد حرف تحريفاً أبرأ إلى الله منه « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة »

وختاماً لا أجد بداً من الإشارة بهذه المناسبة إلى أن أبحاث المستشرقين تثق ثقة كبيرة بالأحاديث النبوية بعد أن خبرتها بكل مقاييس البحث ، بل إنها سارت شوطاً كبيراً في الثقة بأحاديث شك فيها علماء الجرح والتعديل المتقدمين ، وهي مسألة سأتناولها ببحث خاص في فرصة أخرى إن شاء الله .

علي حسن عبد القادر

استئصال داء الزهري

لم ير العالم عهداً كهذا العهد وُفق فيه رجال الطب إلى إنقاذ البشرية من عدد كبير من الأمراض المضالة . فقد اكتشفت طريقة جديدة لاستئصال داء الزهري ، وهو الذي حير الأطباء قروناً طوالاً ، وكان وما برح من أكبر بلايا الجنس البشري . وذلك بمركب الدكتور بول أرليك الكيميائي المشهور الذي أعلن أمر اكتشافه منذ ثلاثين سنة مضت ، وعالج الأطباء مرضاهم به فلم يكن الشفاء يتم إلا بعد عام أو عامين

أما الذين وفقوا إلى ابتداع طريقة جديدة للمعالجة بهذا المركب

(١) Z. D. M. G, Bd-93, 5. 23

ذاته فهم الأطباء هرالد توماس، ولويس شارغين، ووليام لا يفر، وجيمعهم من رجال مستشفى « جبل سينا » فى نيويورك . وقد جربوا طريقتهم فى غضون ست سنوات ، فى ذلك المستشفى ، فجاءت تجاربهم محققة لاعتقادهم بصحة الطريقة التى تقتل جراثيم هذا الداء العياء فى خمسة أيام ، وتطهر دم المريض به من أدرانها نهائياً . وقد عالجت المستشفيات الأخرى بهـا تحت معاينة الإخصائيين ، فاتضحت صحة ما قيل عنها وأن ٨٥ ٪ من الذين عولجوا بها طهروا من جراثيم الزهرى التى كانت متغلغلة فى دمائهم وأنهم أمنوا خطرها أو العدوى بها

أما الباقون الذين تملكهم الداء فأصبح عضالاً فقد استغرقت معالجتهم لاستئصاله بالكلية حوالى الشهرين . ومركب الدكتور أرليك يعرفه الأطباء، وهو فيما يقال يعطى للمريض حقناً على التوالى مدة خمسة أيام بمقدار لم يعلن بعد . ولا تكون هذه الطريقة فى متناول الأطباء قبل انقضاء بضع سنوات ، كما يقول مكتشفوها الذين لم يوضحوا أسباب هذا التأخير . والمساعى مبذولة الآن لحمل الحكومة الأمريكية على تعميم استعماله ومعالجة جميع المصابين بالزهرى ، الذين كان عددهم فى العام الماضى نحو نصف مليون

غلطة شائعة

قرأت أكثر ما كتبه الناقدون عن الجزء الثانى من كتاب الدكتور طه حسين بك : « على هامش السيرة » الذى صدر منذ أمد بعيد ، فلم أجد ناقداً منهم نص على الأخطاء النحوية واللغوية المتكررة التى وقع فيها الدكتور طه . ومن أظهر هذه الأخطاء أنه فى عبارة له بالكتاب المذكور يقول : « وما أحسب إلا أن الأيام ستترى » فجعل كلة « تترى » فعلاً بإدخاله حرف السين الخاص بالأفعال عليها ، مع أن هذه الكلمة اسم لا فعل ، وإليك الدليل :

قال صاحب القاموس فى مادة (الوتر) : « وجاءوا تَترَى وتنوّن ، وأصلها وَترَى : متواترين » . فلو أن الدكتور قال : « وما أحسب إلا أن الأيام ستمر تترى » لاستقام تعبيره على سنن العربية ، ولكن ...

ولن أنسى النص على أن كثيرين من ناشئة الكتاب يخطئون فى استعمال هـذه اللفظة ، وهم يحسبونها فعلاً بمعنى « تتابع » والصواب ما قدمنا .

(البجلات) أحمد جمعة الشرباصى

كتاب جديد لابن حزم الأندلسى

هذه رسالة للإمام ابن حزم فى (المفاضلة بين الصحابة) نشرها اليوم على غلاء الورق وصعوبة النشر صديقنا الأستاذ سعيد الأفغانى ، فجاءت فى نحو مائة صفحة ؛ فقدم لهـا مقدمة فى دراسة حياة ابن حزم دراسة كاملة ، وضم إليها ذيلاً يشتمل على تراجم مطولة وفهارس مفصلة لأسماء الأعلام الواردة فى الكتاب، فبلغت المقدمة مع الذيل ثلاثمائة صفحة ، كلها بحث وتحقيق فى لغة سليمة وديباجة صافية . وقد قام بهذا كله على صمت وتوار من الناس ، وبعد عن الادعاء الذى اكتفى به هؤلاء الذين جاءوا بعلم العربية من ديار العجم . والأستاذ الأفغانى أحد أربعة هم بين أدباء الشام الدائبون على العمل (والإنتاج) الثابرون على الكتابة والتأليف والنشر ، وهم الأستاذ الجليل العلامة محمد كرد على بك ، والكاتب الأكبر معروف الأرناءوط ، والأستاذ الأفغانى ، ورابع أستحى أن أسميه . اثنان منهم للبحث والتحقيق والعلم ، واثنان للأدب الخالص . هذا ولا بد من عودة إلى الكلام على هذا الكتاب ، وإنمـا عجلنا للأستاذ الشكر كما عجل لنا الهدية .

على الطنطاوى

وفاة عالم جليل

استأثرت يد المنية بالعالم الجليل ، شيخ القراء فى القطر الشامى المرحوم الشيخ عبد الله المنجد ـ والد الأستاذ صلاح الدين المنجد . فكانت وفاته فاجعة كبرى اهتزت لها أرجاء دمشق ومشت بشيبها وشبانها فى جنازته العظيمة ، يتقدمهم سعادة مدير المعارف ورجال

التعليم وسماحة رئيس جمعية العلماء وإخوانه العلماء الأجلاء ، وقد أبّنه على القبر بعض أعلام المسلمين

وقد كانت للفقيد منزلة سامية بين المسلمين لما اتصف به من العلم الغزير ، ولأنه شيخ القراء والحافظين لكتاب الله عز وجل ، ولما عرف عنه من دماثة الأخلاق ولين الجانب والتواضع والقيام بواجبات العلم ، وقد تخرج على يديه طلاب لا يُحصى عددهم كلهم يشهد بفضله وعلمه . وخسارة المسلمين به وبمن سبقه من علماء دمشق الأجلاء لا تعوّض

أسأل الله أن يلهم آله وذويه جميل الصبر ، وأن يوفقني لكتابة فصل عنه في هذه المجلة الغراء ، أبيّن فيه سيرته وفضله ومزاياه

(دمشق) « م . ط »

وأسرة (الرسالة) تقدم إلى الأستاذ صلاح الدين المنجد خالص العزاء .

المفاضلة بين الصحابة

للأستاذ الأديب السيد سعيد الأفغاني هِمَم مشكورة في طبع بعض الكتب القديمة . وآخر ما طبعه رسالة ابن حزم المسماة (المفاضلة بين الصحابة) وهذه الرسالة موجودة برمتها في كتاب (الفصل في الملل والنحل لابن حزم) من الصفحة ١١١ إلى الصفحة ١٥٣ من الجزء الرابع من طبعة الخانجي ، وأما الطبعة الثانية فليست تحت يدي لأشير إلى مكان الرسالة منها . فلعل أحد الناسخين (من الناصبة) جردها من كتاب (الفصل) فحسبها بعضهم كتاباً جديداً . وفي الخزانة التيمورية نسخة منها كان الأستاذ كرد علي أخذ صورتها الشمسية . فالجدوى من نشر هذه الرسالة مستقلة هي للطابع لا للباحث .

فضيل سالم المهدي

(الرسالة) : لا ندري كيف غفل الكاتب عن الجهد العظيم الذي بذله الأستاذ الأفغاني في التحقيق والتعليق والفهرسة والترجمة حتى أصبح الكتاب بمقدمته وذيله كتابين لا جدوى لأحدهما بغير الآخر . ولو كان يدري الكاتب شروط النشر الحديث لعلم أن هذا الكتاب ما كان يفيد الباحث لو لم ينل هذه العناية من الأستاذ سعيد .

حول آية إطعام الطعام

إنها ليد طولى للرسالة تقابلها بالشكر أن أتاحت لنا الاتصال بإخواننا في العراق نبادلهم الرأي ونساجلهم البحث ؛ فقد نشرت في عددها الماضي رد الأستاذ الشيخ كاظم سليمان خطيب الكاظمية بالعراق على إنكارنا صحة ما روى الرواة في سبب نزول آية إطعام الطعام من صوم الإمام علي رضي الله عنه إلى آخر ما زعموا. وقد حاولت أن أظفر بدليل في كلام الأستاذ فلم أنل

وغير خاف أن الإمام كرم الله وجهه في سابقيته وهجرته وبلائه ومناقبه وعلمه وفضله وفتوحاته وقرابته لا يرفع من شأنه رواية لم تثبت

على أن المفسرين بإزاء هذه القصة فئات منهم من ضرب عنها صفحاً ، ومنهم من رواها من غير بحث ، ومنهم من نقدها. فقد جاء في تفسير الطبري

« والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون ... » . فتراه ارجع ضمير يطعمون إلى الأبرار ولم يشر إلى قصة صوم الإمام أقل إشارة،

وقال الخطيب الشربيني بعد أن ساق القصة : «حديث موضوع»

وفي الشهاب على البيضاوي : « هو حديث موضوع مفتعل كما ذكره الترمذي وابن الجوزي ، وآثار الوضع عليه ظاهرة لفظاً ومعنى »

وقال الألوسي بعد أن ساق القصة : « وتعقب بأنه خبر موضوع مفتعل ... » إلى آخر عبارة الشهاب السابقة

وقال الفخر الرازي والقول ما قالت حذام : « إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان ، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عللهم ، ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ، ثم ذكر وعيد الكافر . ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال : « إن الأبرار يشربون » ، وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار ، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بياناً لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين ، فلو جعلناه

مختصاً بشخص واحد لفسد نظم السورة . والثانى أن الموصوفين بهـذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله : إن الأبرار يشربون، ويوفون بالنذر، ويخافون، ويطعمون وهكذا إلى آخر الآيات. فتخصيصه بجمع معنيين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول على بن أبى طالب عليه السلام فيه، ولكنه أيضاً داخل فى جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين وكما أنه داخل فيها، فكذلك غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة » اهـ . كلام الرازى

أما من نقل القصة من المفسرين بلا بحث فليس فى مجرد النقل حجة

ومن العجيب أن ابن عباس الذى رويت عنه هـذه القصة من القائلين بأن سورة (الإنسان) مكية نزلت قبل زواج الإمام بالزهراء عليهما السلام، فكيف يصح ما رووه أم كيف يستقيم

محمود محمد سويلم

إلى الأستاذ محمد سعيد العريان

جاء فى كتابكم القيم « حياة الرافعى » أن والد فقيدنا الغالى هو الشيخ عبد الرازق الرافعى ؛ فالتبس على الأمر بعد أن كنت أعلم أن اسم أبيه « صادق » نسبة لما يطلقه على نفسه : « مصطفى صادق الرافعى »

فهل لك فى إزالة هذا الالتباس وإيضاح الحقيقة ؟ بعـد أن تقبل تحية صدق من أخ يقدر فيك ـ على البعد ـ الإخلاص والوفاء

(دمشق) بشير العوف

الأمة الإسلامية ونادى المراسلات الإسلامى

تتكون من العالم الإسلامى الممتد فى كل بقعة من بقاع الأرض أمة تخالف فى نظامها ومقوماتها الشخصية الأمم ، فمن المألوف فى كل أمة أن تكون الوحدة بين أفرادها وحدة الدم أو اللغة. ولكن الأمة الإسلامية التى تتألف من أجناس متعددة ولغات متباينة، وتقيم فى قارات الدنيا الخمس، هذه الأمة تتألف من كل مؤمن صادق الوعد قوى النفس حى الضمير، من كل أمة تربط بين أفرادها العقيدة بدلاً من أن يربط بينها الدم ويوحد بينها الفكر ما فرقته اللغة

هذه الأمة العظيمة تتلاقى بقلوبها وأبصارها عند كعبة واحدة كل يوم خمس مرات، وتهتف بنداء واحد كل يوم مئات المرات كانت ، حفنة من الرجال خرجوا من جوف الصحراء ينشرون كلمة التوحيد ، ويرفعون اسم الله قد دانت لشجاعتهم وإيمانهم جبابرة الأرض ، وفرضوا على كل الأمم أنبل التقاليد وأفضل الأخلاق وتركوا وراءهم مجداً خالداً باقياً ما بقيت الأرض

إلا أن روح الجمود والتفرقة والجرى وراء الأغراض ما فتئت تنخر فى عظام هـذه الأمة حتى وصلت إلى حالها الحاضرة من التقهقر والضعف والانحلال ؛ هـذه الحالة التى تثير فى النفوس كوامن الألم وتدفعنا دفعاً إلى أن نفكر فى مجدنا التالد وتقاليدنا النبيلة التى يكاد أن يعفى عليها الزمن

إن نادى المراسلات الإسلامى الدولى الذى هو عبارة عن هيأة إسلامية دولية مركزها الرئيسى بالمملكة المصرية يشترك فى إدارتها وتنظيمها نخبة من شباب الإسلام فى مختلف بلاد العالم يدعو مسلمى الدنيا بأكلها للانضمام إلى عضويته وبذل أقصى الجهد فى نشر فكرته ومبادئه والدعاية إلى الانضمام إليه سعياً وراء تحقيق أغراضها التى تألف من أجلها، والتى تقوم على خلق علاقة وطيدة تتناول كل أمور الدنيا والدين بين مسلمى الدنيا بأكلها مهما اختلفت اللغات أو تباينت الأجناس أو بعد المزار

إن الاشتراك فى نادى المراسلات الإسلامى الدولى لا يكلف الأعضاء مالاً ولا وقتاً ولا جهداً ، ولـكنه وسيلة لا تدانيها وسيلة فى تحقيق الوحدة الإسـلامية وبعث القوى الكامنة فى نفوس الأمة الإسلامية

فإلى مسلمى ومسلمات العالم نسوق هذه الدعوة راجين أن تصل إلى كل مسلم ، وأن يعمل الجميع على نشرها فى جميع أنحاء العالم

تقدم طلبات الانضمام وتطلب الاستعلامات بلا أى مقابل من السكرتير العام لنادى المراسلات الإسلامى الدولى صندوق البريد رقم ٩٣٩ بالقاهرة بمصر .

رسالة النقد

ليالى المــــلاح التائه

للأستاذ الشاعر على محمود طه

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

ليس أحب على النفس التى تحيا فى هذا الجو الضيق الذى حل فيه الربيع بمواكبه عابساً يائساً من أن تنطلق فى الحياة انطلاقة « الملاح التائه » الذى يخبط على غير هدى ، لا غرض له من هذا الخبط إلا أن ينطلق وينطلق ! فيضيع عن الشاطئ عبر هذا اليم الذى تلاشى عن عينيه شاطئه ، وأصبح يحمل الموج لمن يسأل عنه صدى ألحانه ، وفى هذه الألحان شوق غلاب ووجد ملح

حياة هذا « الملاح التائه » ، هى ذات حياة ذلك البوهيمى الذى انطلق من قيود الحياة ، وراح يطلب لذتها للذتها . إلا أن البوهيمى قريب منا حينما نطلبه ؛ أما ذلك « الملاح التائه » ، فقد انفصل عنا حتى ضنّت الأمواج علينا بالإبقاء على آثار زورقه ! فنحن نسمع أصداءه ، ولكن لا نعرف مصدر تلك الأصداء ؛ ونطرب لألحانه المقبلة مع الموج المتهدل ، ولكن هذه الألحان تبقى مجهولة الإيحاء !

أين صاحبها ؟ وأية موجة تلفّ الآن زورقه ؟ وأى شاطئ مرصّع تفتّح أمام عينيه ؟ أذكر أننى تلوت نقداً لديوانه الأول يلوم الشاعر على أنه يهمل مشاهد بلاده ، ويعمن فى وصف مشاهد غريبة عنه وعن أهله ؛ ولكن عزب عن الناقد أن — شاعرنا ملاح تائه — يعبر كل البحور ، ويرف ناظره على كل الشواطئ ، ويكحل جفنه بأى نوع من الجمال . ومتى انطلق الشاعر من هذه الحدود ، ترامى أمام طرفه ، لا نهاية فسيحة تبدو عليها حدودنا خطوطاً تكاد تلوح كباقى الوشم إزاء عاله الفسيح !

وفى « ليالى الملاح التائه » مشاهد غريبة — عن غير هذا الشاعر — توحى إليه عاطفة شديدة الإحساس ، لكنها فى هذه المرة لا تكاد ترتدى — الإنسانية — رداء حتى يردها إلى الأرض التى انفصلت عنها نوازع فيها الوجد والحنين والاضطراب والكآبة ... وكل هؤلاء نعم القرين للشاعر ! وإذا كان لا بد من النقد ، فإننى آخذ على صاحب الليالى حشده لبعض مقطعات ليست من وحى الملاح التائه ! وليست أخوات تلك الرعشات التى تأتى متآخية مع رعشات الأمواج ! وأولى بمثل هذا الشاعر الصافى أن يتجرد كثيراً من شعر المناسبات . ومن أولى من الملاح التائه بالتجرد من هذا ؟ وهو الذى وقف حياته على الشعر الصافى ... ؟

أول ألحان « الملاح التائه » أغنية سامية أعدها فتحاً جديداً فى عالم الشعر والغناء ، هى « أغنية الجندول » التى نظمها خير شاعر ولحنها خير فنان ، قد امتزجت فيها عبقرية الشعر وعبقرية الفن ، حتى لتحار فى هذا الامتزاج الغريب الذى ترك للقطعة قيمة خاصة تذكرنا بالشعر العربى الوجدانى ، ولعلها تمت بصلة أو صلات إلى الموشحات ؛ ولكن تلك الأغنية أصدق عاطفة ، وأبعد تأثيراً فى النفس ، لأن العاطفة المجردة بنثت بها دون أن تترك مجالاً لتغلب الصبغة الكلامية ... ولعل هذه الأغنية هى أروع أغانى « الملاح التائه » لأنها تصور حياة هذا البوهيمى الذى يعالجه حنينان : حنين إلى مجالى الهوى ، وأين تلك المجالى ! وحنين إلى أرضه المتواضعة التى يصارعه الشوق إليها . حنينه الأول إلى كأس ينتشّى الكرم خمره ، وحبيب يتمنى الكأس ثغره ... هذا الحنين عاوده وأنساه كل شىء ... وبات من أجله يضيّع فى الأوهام عمره ! ولكن الذكرى تناديه ، والشوق إلى وطنه يهتف به ... فيشعر بغربته شعوراً كاملاً ، ولا يزيد على شعوره هذا شيئاً

قال من أين وأصغى ورنا قلت من مصر غريب ههنا !

هذا البوهيمى نفسه يمر على الخيام فيقف عنده ، وهو الذى لا يقف فى مكان ، وهنالك يرسل لحناً يعد أعمق ما أرسله من ألحانه

فى لياليه ، وأنى لنا أن نتمثل هذا البوهيمى الذى أضناه جوب البحار وشق القفار ، حتى وقف عند باب هذا الخمار !

كلما لألأ فى الشرق السنا دقت الباب الأكف الناحلة
أيها الخمار ! قم وافتح لنا واسقنا قبل رحيل القافلة

وما عسى يسقيه هذا الخمار الذى جمع خمره من كرم غريب من الكروم وعصرها من عناقيد ترى فيها :

كل عنقود دموع جمدت وقلوب فنيت فيها شعاعا
ما احتواها الفجر إلا اتقدت جمرة تذكو حنيناً والتياعا

وبعد السكر يناجى الخيام بمثل ما عاوده فى حياته ، وفى هذه النجوى صعود شاعر :

صرخت آلامه فى كوبه فهوى يثأر من آلامه
إنما البعث الذى تشدو به يقظة المفجوع فى أحلامه !

لله ما أروع هذا البعث ؟ ولكن حسبه تعزية :

... ... أنا سنحيا فى غـد ، مثل حياة الزهر
وسنطوى الأبد المجهول طيا جددَ الأطياف شتى الصور
حسبها تعزية أن نحلما بأناشيد الصباح المنتظر
ونشق الأرض عن وجه السما حيث نور الشمس أو ضوء القمر
ربما جدد أو هاج لنا نبأً ، أو قصةً من حبنا
نوح ورقاء أرنت حولنا أو صدى قبرة مرت بنا
... ...

فى الديوان شعر كثير ، وخطرات تدل على قلب شاعر : وللشاعر قدرة عظيمة بنقل الحوادث الخاصة بروح إنسانية كما فعل فى قصيدة «مصرع الربان» . ولعل بين هذا الربان وهذا الملاح نسباً . هـذا الربان هو الكابتن (ما كيج جونس) ربان حاملة الطائرات كوراجيوس التى أغرقتها غواصة ألمانية فى بدء الحرب الحاضرة ، فآثر الموت غريقاً مع سفينته على الحياة بعدها . ولما بلغ الماء هامته ، ألقى بقبعته على الموج إجلالاً للموت وإكباراً للبحر الذى حمله حياً وضمه ميتاً ! ولم يجد الشاعر فى هذه الحادثة مهرباً من وصف ذلك العدو الخافى المقاتل ... وهو وصف دانٍ جداً من وصف شوقى للغواصة. وما أدنى المشابهة حين يقول :

رماك فى جنبات اليم محترب خافى المقاتل عند الروع فرار
ترصدتك مراميه ولو وقعت عليه عيناك لم تنقذه أقدار

وأبدع بتلك الصورة التى خلدها الشاعر

وغاب كل مشيد غير قبعة ذكرى من الشرف العالى وتذكار
ألقيتها ، فتلقى الموج معقدها كما تلقى جبين القائم النار

وهذه قصيدة وليدة البحر ، لو لم يقع عليها الملاح التائه أثناء تطوافه لم يلقها ، لكن الباعث عليها يختلف عن جملة البواعث الأخرى، لأنه باعث الحياة التى تهتز بانفجار، وتأبى الحياة إلا فجاءة واقتحام أخطار

* * *

شعر فيه جميع عناصر الشعر !
زودينا من مثل هذا الشعر يا مصر !
وهل الشعر إلا نشوة علوية وشعاع كأس لم يقبلها فم ؟!

نبيل هنداوى



الرجل الذي لا يقاوم

للأستاذ نجيب محفوظ

في تلك اللحظة التي لا تنسى حين وجه المأذون سؤاله الفاتن إلى صابر افندي عبد الخالق : «هل تقبل نكاحها؟» . ثم عطفه إلى الآنسة حياة الخضيري قائلاً: «هل تقبلين نكاحه؟». في تلك اللحظة التي لا تنسى تنهد قلبان ارتياحاً وغبطة بعد أن احترقا شوقاً وجوى عشرة أعوام تساوى مائة عام مما تعدون . وقد لهجت الألسن بالخبر السعيد أكثر مما ألفت أن تلهج بنبأ زواج . لأن الحب الذى آلف بين هذين الشخصين عشرة أعوام طوال كان ذاع أمره ، وجرى مجرى الأمثال ذكره ، فغدا نادرة يطرب لها الكواعب ويستدفئ بها العجائز في أحياء غمرة والسكاكيني والظاهر وغيرها من الأحياء القريبة التى شاهدت من آياته ما يهتز له النفوس وتخفق القلوب . وقد طغى هذا الحب واستبد . فهزء بالكبرياء ، وأزال الفوارق واستأداهما ما يطيقان وما لا يطيقان من التصبر والتجلد والإخلاص والوفاء ، فأدياها إليه عن طيب خاطر ، وقدما على مذبحه القرابين عاماً بعد عام . أما حياة فهي كريمة السيد شلبي الخضيري تاجر الأخشاب ذى الثروة الواسعة والجاه العريض ، والمكانة الملحوظة في أسواق التجارة وميادين السياسة والحياة النيابية ، وكانت إلى هذا حسناء في مقتبل العمر مشهوداً لها بالجمال الفائق والرشاقة الفاتنة . وأما صابر فمن أسرة فقيرة من عامة الشعب ، ارتقت به مدرسة الصنائع إلى وظيفة مهندس كهربائي بمصلحة الميكانيكا بمرتب ستة جنيهات . فوهبته قلبها وجمالها وصدقته المودة والإخلاص ، وأعرضت وفاء له عن عشاق ملحين عنيدين ، ورفضت أيادى شبان ذوى حسب ونسب وجاه ، منهم طبيب وجيه ، وضابط بوليس يعبث شريطه الأحمر بالأفئدة . فلم تطع سوى قلبها العاشق المفتون . وحافظ هو من ناحيته على عهدها ، وأخلص لها الحب ، وليس هذا بالشيء الذي يستهان به في مثل عصرنا هذا . وتحمل في سبيلها أذى كثيراً دأب والدها على توجيهه إليه قبل أن يسلمه اليأس من إذعان كريمته إلى قبوله . وفوق هذا ، فلم يكن مما يجذبه إليها جاذب الطمع في مال أو جاه أو ترق ، فكان حبه خالصاً نقياً . على أنه لم يعرف عنه مع ذلك أنه كان يغض الطرف قط عن حسان السكاكيني أو الظاهر ، وما كان يستطيع ذلك ، ولكن الحق الذى لا مراء فيه أنه احتفظ بقلبه وحبه لها دون بنات حواء جميعاً ... وشاء الحب أن يختتم ألم السنين بهذا الزواج . فقال أناس : إنه إذا كان الحب قد حكم أن يدعوهما دواماً إلى حدائق القبة وبساتين غمرة، فالزواج لا شك محتبسهما في بيته إلى الأبد، وأنه لن يرى بعد ذلك اليوم صابر أفندى إلا حين ذهابه إلى مصلحة الميكانيكا والكهرباء ، أو عند أوبته منها . وصدقت فراستهم ، ولكن شهراً واحداً رؤى الشاب بعده ذات مساء يغشى قهوة كان دائم التردد عليها أيام عزوبته ، وقد نفخت فيه الحياة الجديدة نضارة وسعادة ، فبدا أنيقاً جميلاً ، فلم يدهش لذلك رفاقه وتلقوه فرحين ... فمضى يغيب حيناً ويعاود أحياناً ، ثم اختفى ردحاً طويلاً فظنوا جميعاً أنه آثر هدوء البيت على ضجيج القهوة ، ولكن واحداً ممن يتطوعون لإذاعة الأخبار قال إنه يراه كل مساء يجلس أمام « صالون الكمال » في شارع قمر لا يبرح مكانه حتى يغلق « الصالون » أبوابه حوالى الساعة العاشرة . فوقع القول من النفوس موقع الدهشة وتساءلوا عما يغرى صاحبهم بتجنبهم وملازمة صالون الكمال . وكان بينهم خبثاء متطفلون فلم يهدأ لهم بال حتى أرسلوا رسولاً منهم يستطلع الخبر . وعاد الرسول بما هو ادعى إلى الدهشة ، والإنكار قال : إن صابر عبد الخالق يسعى وراء حب جديد ، وإن التى شغفته حباً هذه المرة معلمة بروضة الأطفال تقيم بشقة في العمارة رقم ١٠ بشارع البستان المواجه لصالون الكمال ...

كيف أمكن أن يحدث هذا التحول الغريب ؟ هل خبا الحب الذى صمد للشدائد عشر سنوات بهذه السرعة ؟ . . . ترى هل خنقه الملل في شهر وبعض شهر ؟ . . . أم بددته الخيبة وانقشاع الأوهام ؟ ... وكيف مكن أن ينزع قلبه إلى

امرأة أخرى بهذه السهولة بعد أن تعود على حب زوجه ذاك الدهر الطويل ؟!

قبل أن نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أكثر مما عرفنا إلى الآن من هو صابر عبد الخالق ؟

هو شاب في الثلاثين له فضائله وله رذائله مثل جميع الناس . فمن فضائله احترامه لنفسه وحرصه على كرامته ومحافظته على آداب البيئة وتقاليدها المتوارثة ، وإن كان يشوب حماسه لهذه الفضائل ضيق آفاقه وانحصار ذهنه وضحل ثقافته مما يجعله ينحدر في كثير من الأحايين إلى التسلف والتعصب . وأما رذائله فهي أدنى إلى الفكاهة منها إلى الشر وتدور جميعها حول الغرور ، والغرور الموجه إلى مزاياه الجسمانية قبل كل شيء . نعم لا أنكر أنه عظيم الثقة بمواهبه العقلية وقدرته الفنية كمهندس قليل النظير، ولكن تيهه بحسنه واعتداده بجماله يفوقان كل تقدير . وليس ثمت شك في أنه يحظى بقسط من الوسامة والجمال فقد خلق الله له عينين سوداوين يظللهما حاجبان مقرونان ، وأنفاً مستقيماً . ولكن عجبه فاق حسنه كثيراً وغلب أثره على فعاله وأقواله، وكان أمراً ملحوظاً لدى رفاقه منذ الصغر فاستبقوا إلى العبث به تارة بإطراء جماله ، وتارة بإبداء إشفاقهم على الحسان من وقعه وفعله . فما خطر له على بال أنهم يهزأون به؛ وازداد عجباً وما عتم أن غدا عجبه داء لا شفاء منه . ولذلك كان أحب الأشياء إلى نفسه أن يقف أمام المرآة يطالع صورته المحبوبة وقوامه الرشيق ويطيل النظر إلى عينيه الدعجاوين وثغره المليح المفتر عن ابتسامة وضاءة، المكلل بشارب « كلارك جابل » . كما كان أشق الأمور على نفسه أن يسعى إلى اقتناء بذلة يلف بها حسنه وشبابه . فما كان يطمئن ذوقه حتى يطوف بمحلات القاهرة التجارية جميعاً فاحصاً مفاضلاً بين الأصناف والألوان ، ومتى وفق إلى اختيار لون منها واجه متاعب التفصيل ، وتجاذبت عقله المودات الحديثة ، وأنهكت قواه البروفات المتتابعة ؛ ثم يمضي في تخير القميص الموافق للبدلة ، ورباط الرقبة الملائم للقميص ، والمنديل الموائم لرباط الرقبة ، ولا ينسى — إتماماً للتناسق العام — الحذاء والجورب المناسبين . كان متأنقاً شديد الحساسية إلى حد الإرهاق . فكان الكواء يوجه إلى ثيابه عناية لا يوجهها لثياب أحد من زبائنه الآخرين . ويحلف الحلاق أنه يلقى في ترجيل شعره وتطرية شاربه من الجهد ما لا يلقاه طبيب يتصدى لحالة وضع خطير

لهذا لم يكن عجباً أن يستهين بتضحية زوجه في سبيله ، وأن ينكر على القائل قوله : إن إخلاصها له نعمة يحسد عليها . بل كان في أعماقه يعتقد أنه صاحب الفضل وأنها صاحبة الحظ التي يحسدها عليه بنات حواء جميعاً . كيف لا وقد وقف عليها جماله الذي تقتتل عليه أجمل الحسان ؟!... وقصة حبه الجديد آية على غروره قبل كل شيء . فلم تكن إلا أنه رأى فتاة تعبر شارع السلحدار ذات أصيل فراقه منظرها ، لأنها كانت ذات قد رشيق ووجه خمري مستدير رقيق القسمات . يولد تناسقها في النفس اشتياقاً ويورث في الصدر حرارة . فتبدى على وجهه الرضاء، وهز رأسه طرباً كأنه يتابع لحناً شجياً . وكان إلى جانبه ساعتئذ شاب من معارفه لم يفته ما بدا عليه. فأدنى رأسه من أذنه وقال بلهجة ذات معنى:

— حذار فالنظرة إلى هذه تعقبها حسرة

فأنكر صابر قول صاحبه وسأله ببساطة وعيناه تتعقبان الفتاة الجدة في السير :

— وله ؟

فقال الشاب بخبث :

— لأنها فتاة جد ، لا تلوي في سبيلها على شيء ولا تعير المغازلات أدنى التفات . وما تزال تتردد كل صباح وكل مساء ما بين بيتها في شارع البستان وروضة الأطفال بشارع السلحدار مقتحمة أنظار المتطفلين كأنما تحتفظ بقلبها في صندوق مغلق ضائع المفتاح

فساءه هذا الوصف وأحس بمرارة لما آنس فيه من تحد. وقال متفلسفاً على قدر عقله :

— قلب أي امرأة في صندوق ضائع المفتاح كما تقول ، والعبرة بالرجل الأريب الذي يقدر على الظفر بهذا المفتاح . وهز منكبيه باستهانة وابتسم ابتسامة ساخرة مشبعة بالثقة والطمأنينة ، وودع الفتاة التي شارفت نهاية الطريق بنظرة وعيد . ولم يكن يداخله أي شك في قدرته وفنه ، ولا تزعزعت ثقته بنفسه قط ، ومع

ذلك لم يرح قلبه، ووجد في كلام صاحبه تحدياً صريحاً لا يجوز السكوت عليه؛ وجعل يتساءل في غيظ وحنق: ترى هل يمكن حقاً أن تقتحمه هذه المعلمة إذا تصدى لها ... ؟

هل يستعصى عليه العثور على المفتاح الضائع؟ وتكدر صفوه تلك الليلة. وفي أصيل اليوم الثاني قصد إلى شارع السلحدار، ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يدفع بنية يتحرج لها ضمير زوج مخلص مثله، وإنما ساقه انفعال غضب وعاطفة لا تتنكب الحق إذا قلنا إنها علمية إلى درجة ما، لأنها كانت تتشوف إلى التحقق والتجريب. قصد إذاً إلى شارع السلحدار وانتظر. ثم رآها تبرز من باب المدرسة بقدها المشوق. فوثب وتحفز حتى إذا دارت منه على مرمى نظرة سدد إليها عينين فاتنتين، ولكنها سارت لا تلوي على شيء كما قال صاحبه، وضاعت النظرة في الفضاء منضمة إلى أسرتها من الأنوار الكونية. فأحس بخيبة وأحنقه جفاؤها السكسوني، فصرّ على أسنانه وسار في أعقابها. ومضى يشاهد خصرها الدقيق وردفها المستوي ويقول لنفسه متعزياً «لو أصابتها النظرة لذاب جفاؤها كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس». وأراد أن يلفتها إليه، وتنحنح وسعل سعلة مؤدبة، ولكنها لم تبد أدنى اهتمام، فأوسع الخطى حتى حاذاها، وكاد أن يلمس كتفها، فأوسعت الخطى بدورها لتسبقه فاستبقا. وأدركت بلا ريب أن شخصاً يطاردها فالتفتت نحوه بغضب، وكان يتربص للفرصة السعيدة فصوب إليها نظرته المشهورة، فردت عليها بنظرة عنيفة كأنها تقول له: «مكانك يا هذا». وتنحت عن سبيلها منعطفة إلى اليسار ثم انتهت المطاردة بانتهائها إلى العمارة رقم ١٠ بشارع البستان وتردد أمام العمارة مرتين، ولم يجد بداً من العودة فقفل راجعاً. وكان مهموماً مغتماً كمن يقفل من معركة دامية لا مطاردة غرامية. وما كان يشعر بأي إحساس من أحاسيس الحب أو الفتنة، ولكن كانت تضطرم في قلبه عواطف الكفاح والقتال وبات ليلته وقد صدقت عزيمته على الجهاد إلى النهاية

وتوجه في أصيل غده إلى المكان نفسه - وانتظر حتى رآها تسير نحوه في مشيتها التي تجمع بين الرشاقة والشدة فتبعها على الأثر، وأدرك لأول وهلة أنها لا تجهل تعقبه لها وأنها برمة ضيقة به، ولكنه سار في طريقه غير حافل بتذمرها، لأنه كان عنيداً مثابراً ملحاحاً؛ فكان جزاؤه نظرة أشد من نظرة الأمس. وفي اليوم الذي بعده خرجت عن صمتها بأن قالت له بلهجة خشنة صارمة: «من فضلك بلاش قلة أدب». وفي اليوم الرابع قالت له بنفس اللهجة «شيء بارد». وقالت له في اليوم الخامس وهي تحدجه بنظرة وعيد «إذا لم ترتدع عن هذا السلوك الشائن ناديت الشرطي»، ولما كانا في اليوم السادس لاذت بالصمت يأساً وتجاهلته، ولكنها لم تناد الشرطي، فتنهد ارتياحاً وعد سكوتها فوزاً مبيناً. وأخذته نشوة طرب فسال لسانه بكلام - وإن يكن مبتذلاً غاية الابتذال، ويحفظه جميع من هم على شاكلته عن ظهر قلب - إلا أنه كان يحسبه من الرقى الغرامية كنظرة عينيه سواء بسواء. قال لها: «يا معجباً بنفسه يا شديد الجفاء بغير سبب. يا تياهاً بجماله، هل ذنبي أنا أنك جميل ولا نظير لك في الكائنات. وهل جرمي أن لي قلباً يشعر ويهيم بالجمال. أيصح أن تنذريني بالأمس بالشرطي. وهل ينادى الشرطي للعاشقين ... الشرفاء ... أمثالي، ومع ذلك نادي الشرطي، بل نادي الموت نفسه فلن أبرح حتى أسمع من الفم الصغير هذا — الذي يحاول خنق ابتسامة بريئة بغير ذنب — ما يدنيني إلى أملي ...»

ولم يعد يقنع بالمطاردة القصيرة التي تبدأ في شارع السلحدار وتنتهي في شارع البستان، ووجد في موقع صالون الكمال من العمارة رقم ١٠ ما يشفي شوقه وطمعه. فانضم إلى زبائنه وتودد إلى صاحبه وجعل منه ناديه المفضل على كل مكان

وكان يندفع بادىء الأمر — كما قلنا — بقوة غضب ورغبة في الغلبة. وكان يعتزم أن يقف ويتراجع حين تلين وتتراخى. وكان يعود من كل مطاردة - في أول عهده بها - ولا فكر له إلا عنادها وصلفها وغضبه وحنقه. ثم أخذت صور أخرى منها تتسلل بمهارة فائقة إلى مخيلته مثل قدها الرشيق وعنقها الطويل وقسماتها الصغيرة المتناسبة. ومضت هذه الصور تزحف على وجدانه من سراديب حواسه وتندس إلى زوايا قلبه وهو لاه عنها بحنقه وكفاحه. فغدا يتعرض لها مسوقاً بأشواق وحنين. وملبياً نداء يصعد من أغوار نفسه حتى أقر أخيراً في إشفاق وقلق وذعر

أنه يحبها . وأن الداء يبرح به مرة أخرى . وصادف اكتشافه لحقيقة عواطفه تراخى الفتاة واستسلامها فلم يقف ولم يتراجع كما كان اعتزم . بل شد على يديها فى حماس دافق واندفعا معاً فى سبيل الحب . وفتحت له نفسها وبسطت أمام ناظريته صفحة حياتها البسيطة فعلم فوق ما كان يعلم عنها أنها تعيش مع أمها وخالتها ، وأنهما فى غير حاجة مادية إليها وقد أكدت له ذلك تأكيداً لم يخف عليه مغزاه . أما هو فأخفى عنها جل نفسه فلم يدر لها بخلد أنه زوج وأنه إلى درجة ما عريس . وكان هذا ما يكدر صفوه وينتزعه من سكرة أحلامه، فمثل الصلة التى بينهما لا يمكن أن تدوم قانعة باللقاء صباح الجمعة بحديقة الوطن بهليوبوليس، ومساء الأحد بسينما ركس. وفضلاً عن ذلك لا يمكنه أن يتغاضى طويلاً عن تلميحها المستمر إلى موضوع الزواج . فلم ير بداً — حرصاً منه على الاحتفاظ بها — من مجاراتها فى أحاديثها فما لبث أن جرى ذكر الزواج على لسانيهما وناقشاه على اعتبار أنه النهاية التى تهفو إليها نفساهما

وخطت درية خطوة أخرى فدعته إلى زيارة بيتها لتقدمه إلى أمها وخالتها . هنالك أسقط فى يده لأنه ما كان يستطيع أن يلبى الدعوة ولا كان يدرى كيف يرفضها ، والاعتذار لا يغنى عن حالته طويلاً . فما عسى أن يفعل ؟ أيلوذ بالفرار ويختفى من أفقها إلى الأبد؟ قد يبدو هذا الحل على ما فيه من نذالة أوفق الحلول، ولكنه لم يستطع على شدة حرجه أن يأخذ به ، لأنه كان انفعالى المزاج لا نزع نفسه عن هوى. وكان فى الحق قد غدا مستهاماً بها كلفاً. فألف صورتها وحديثها وإيماءاتها ألفة مازجت روحه وسمادته . فهل يعترف لها بالحقيقة ويسألها المغفرة ... ولا هذا استطاع لأنه أشفق من أن يأخذها الارتياع فتنفر من خداعه . أو تيأس منه فينصرف قلبها عنه . واشتدت به الحيرة وساورته الهموم وتشتت عقله بين شعاب مظلمة . وما فتئ يماطل ويسوف. وما يدرى كيف يوفق بين هواه الجامح وظروفه القاسية .. حتى تبرعت المصادفات بالحل الموفق

وكان اليوم الجمعة وقد عاد إلى بيته ـ وكان يساكن حماه ـ فى الساعة الرابعة مساء . وكان يترنم بأغنية بصوت خافت متناسياً أشجان قلبه إلى حين ، وفتح باب شقته فى هدوء وهم بالدخول ، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع الآنسة درية . وخفق قلبه خفقة شديدة انخلعت لها ضلوعه ، وصاح وهو لا يدرى : « أنتِ » . ولم تكن أقل منه دهشة ، فرددت قوله : « أنتَ » ! وعند ذاك فقط أدرك أن زوجه تقف إلى جانبها ، وإلى يمينها أخوها الصغير « توتو » ممسكا فى يده بكراسة ... ومرت به لحظة رهيبة أحس بأن الأرض تميد به ، ولفه ذهول قهار ، فلم يستطع أن يكتم عواطفه ولا أن يدارى افتضاحه ، وكانت الزوجة تراقبهما بعينين مرتابتين وقد امتقع وجهها وارتعدت شفتاها، ثم ارتسمت على فمها ابتسامة صفراء وسألت المعلمة قائلة بصوت متهدج :

— هل تعرفين زوجى ؟

ولم تدر الفتاة بماذا تجيب ، وقد دوت فى أذنيها كلمة « زوجى » دوياً مزعجاً ، فرددت عينيها بين صابر وزوجه ثانية ، ثم خفضت عينيها الزائغتين واستولى عليها اليأس والغضب وانفلتت إلى الباب لا تلوى على شىء ، ولم تنبس بكلمة ولم تترك وراءها مكاناً لشك أو ارتياب

وكانت الزوجة تشعر بالفتور الذى اعتور علاقتهما وتتحير فى تعرف أسبابه ، فعلمت أن لها غريمة وأن غريمتها هى معلمة «توتو» الجديدة، فغضبت غضبة نفست عن صدرها الكظيم. ونمت الفضيحة إلى أمها ، فاستفحل الخطب ، ولم تنته الليلة حتى حمل صابر حقيبته وعاد إلى بيته وحيداً كئيباً ... ولكن الله سلم؛ ولم يبخل عليه بالغفران القلب الذى صدقه الحب عشرة أعوام فقفل إلى بيت الزوجية تائباً . وتراه الآن إذا ظهر فى الطريق يسير متأنقاً مزهواً كعادته ، فإذا وقع بصره على وجه نضير أو قد رشيق ابتسم ابتسامة الزهد والكبرياء . فإذا خطر لأحد من صحبه أن يداعبه أو يتحداه ابتدره قائلاً : « حسبى ... حسبى ... لا أريد أن أجرح قلوباً بريئة »

نجيب محفوظ

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾